ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الأسكندرية

الملف السري للفضائح

إمبراطورية آل فايد

عبد الله كمال

الفهرس

- **من أحضان تجار السلاح إلى فراش الأميرات ٤**
- قبل أن تعرف هذا الرجل..... ٥
- الفرعون المزيف ٥
- الصهر اللدود ١٥
- الثروة المجهولة ٣٤
- الثمرة المحرمة..... ٦٣
- الرجل الخفي ٩٩
- الطفل المعجزة ١١٦
- عملية التجميل ١٤١
- الابن الضائع..... ١٨٦
- بعد الفصل الأخير..... ٢٢٢

من أحضان تجار السلاح..
إلى فراش الأميرات

قبل أن تعرف هذا الرجل

الفرعون المزيف

عادة ما يقفز رواة قصة محمد الفايد، الملياردير الإمبراطور، من سنوات شبابه الفقير إلى قمة مجده ومرحلة ازدهاره.. يتجاوزون السنين ويأكلون الأيام وينسون التفاصيل ويركبون طائرة التاريخ من محطة الأنفوشي إلى هارودز مباشرة.. وتضيع بين هذه وتلك أوراق ملف سري لا يعرف عنه الكثيرون شيئًا.. وبين المرحلتين تبقى دومًا مناطق مظلمة.. تتجول فيها أسئلة عمياء.. تجرها علامات استفهام لا تبصر.. وألغاز عطشى لأن يرويها ماء الحقيقة.

إن هذا الرجل الذي وصف بأنه دجال، ووصف بأنه محتال، وقيل عنه أنه "فرعون مزيف" وأنه أسطورة، وأنه كذاب، وأنه مرعب، وأنه عنيد، وأنه بشوش، وأنه رجل خير، وأنه ماكر، وأنه لا يقبل الهزيمة، وأنه مبتز، وأنه قوى، وأنه مغامر، وأنه مقامر، وأنه لا يلين، وأنه لا يترك ثأره.. إن هذا الرجل في قصته أشياء عديدة ومختلفة

ومتنوعة.. وإلا ما كانت قد أطلقت عليه كل هذه الأوصـــاف المتناقضة. هذا الرجل الذي قيل أنه " ملياردير جاء من عشة فراخ"، وقيل أنه " كان بائع كوكا كولا"، وأنه " كان منـــدوب مبيعات في شركة سينجر لماكينات الخياطة"، وأنه " بلا أصل وبلا جذور" وأنه " يختلق قصصًا غير حقيقية حول جـــذوره ليوهم الناس بأنه جاء من عائلة عريقـــة"، وأنـــه " لا يلعـــب بأمواله وإنما هو ستار لغيره"، وأنه " مجرد سمسار ووســـيط لآخرين " .. هذا الرجل هو الذي تحدث العالم عنه أكثر من مرة، كانت آخرها حين راح ابنه الأكبر عماد ضحية حادث غامض، لا يخلو من المؤامرة، حين قتل في سيارة مرسيدس فاخرة، كانت تجلس بها إلى جواره الأميرة الأسطورة ديانـــا سبنسر أم ملك انجلترا القادم.

هذا الرجل الذي دارت كل معاركه فـــي بريطانيـــا وفرنسا والإمارات، وكانت كل أحلامه خارج حدود وطنـــه، ولم يزر مصر منذ سنوات.. هو نفسه الذي أبى أن يدفن ابنه المولود في الإسكندرية في تراب وطنه قائلاً: " لأنني أريـــده بجانبي" ولم تعرف ثروته أي طريق إلى بلـــده، ولـــو فـــي مشروع كبير واحد، رغم أن أملاكه تتوزع بـــين الولايـــات

المتحدة ولندن ودبي وباريس وسويسرا والريفيرا واسكتلندا وعشرات الأماكن الأخرى في العالم.. واكتفى فقط بأن يتبرع بمجموعة من البطاطين وعدد من كراسي المُقعدين، وماكينات غسيل الكُلى.. رغم أنه كان يتبرع بملايين الدولارات للأجانب في الخارج.

هذا الرجل، بكل هذه الصفات، وبكل هذه التفاصيل يمثل دراما معقدة.. دراما واقعية – لكن بها الكثير من الخيال – دراما مليئة بالإثارة، ومعبأة بالفضائح، ومخزونة بالمؤمرات، ومدهونة بقصص النساء، ومحشوة بالألغاز، بنيت على أساس غامض، وشيدت فوق أرض غير معروفة، وارتفعت فجأة، ونقلت صاحبها إلى قمة الثراء والشهرة، وبعد أن خاض رحلة طويلة، ومعقدة من خانة الصفر في أقصى اليسار.. حيث اللاقيمة.. إلى خانة الصفر في أقصى اليمين.. حيث المليارات..

هذا الرجل.. أهم عقدة في قصته الدرامية هي أنه ومن حوله يريدنا أن نعرفه كما هو الآن، يريدنا أن ننسى، أن نتجاهل البداية، أن نمحو من ذاكرة التاريخ أي شيء يمكن أن يعطي انطباعًا عن فقره الأول.. ورغم أن فقر

الأغنياء في بداية حياتهم ليس عيبًا.. ورغم أننا في مصر نقبل أن يبدأ الناس من الصفر ثم يتحولون وينمون ويزهرون حتى يصلوا إلى القمة، إلا أنه يعيش في مجتمع لا يقبل هذا التحول، ويرفض أن ينضم إلى نادي الأرستقراطية أي شخص إلا بعد أن يُجرِي له عملية فرز طويلة وصعبة.. وكل حلم محمد الفايد هو أن يقبله هذا النادي.

والقبول في هذا النادي معنوي، إذ لا يشترط النادي أن يوقِّع العضو الجديد على استمارات الالتحاق بعضويته وإنما له شروط خاصة، تستوجب أن يكون شخصًا بريطانيًا، وليس أجنبيًا، وإذا ما تغاضوا عن جنسيته الأولى فإنهم لا يمكن أن يتغاضوا عن شرط الأصل العريق.. وقد فشل محمد الفايد في أن يقنعهم بنفسه، وظلوا يكرهونه، وحتى بعد أن أصبح مالك هاردوز، وأعلن ابنه عن حبه للأميرة ديانا قبل قتله بثلاثة أسابيع، ظلوا يتذكرون أنه كان ذات يوم موردًا الخضروات للقصور الملكية، وأعلنوا رفضهم لأن يكون صاحب محلات البقالة السابق هو الرجل الذي يدق على باب قلعة الملكية في بريطانيا طالبًا الدخول.

ولقد دق الفايد أبوابًا كثيرة من قبلها، كلها فتحت له، بعضها كان سهلاً، وبعضها كان صعبًا، ولكنها فتحت.. إلا هذا الباب البريطاني.. ظل موصدًا.. مرة بضبة الكراهية.. ومرة بمفتاح العنصرية.. ومرات بحروب المنافسين..

ولكنه كان يصر على أن يدق الباب من جديد.. وكان إصراره يقابل دائمًا بمزيد من الرفض.. وقد بلغ هذا الرفض ذروته حين ضاع ابنه ضحية واحدة من هذه المرات.. وكان هذا تصاعدًا دراميًا مثيرًا في القصة.

وقد بدأ هذا التصاعد في السنوات الثلاث عشرة الأخيرة، حين قرر محمد الفايد وإخوته أن يتحول من مجرد مليونير عادي، إلى ملياردير من النوع الثقيل.. وأن يضمن لنفسه ترتيبًا مميزًا في قائمة أثرياء بريطانيا.. ومع تصاعد الحلم.. تصاعدت الضربات.. وتنوعت.. وتكررت.

فبعد أن تم تجاوز معركة الأصل والفصل وجذور العائلة، حاول الفايد أن يغسل نفسه وأن يتطهر، وأن يصنع لنفسه صورة مميزة.. لكنهم أخرجوا له من ملفات التاريخ سيدة عرفها منذ زمن طويل.. قالت أنها أحبته وأقامت معه علاقة من نوع خاص.. فقال بكل هدوء: " إنني لا أذكر ما

الذي فعلته منذ ٢٣ عامًا" وحين. فاز بمحلات " الهـــارودز" وقال " إنني لن أخرج منها أنا وأسرتي ولو بعد ألـــف عـــام" أخرجوا له من ملفات التاريخ القريب سيدة اسمها " فرنشيسكا بولارد" عمرها ٤١ عامًا زعمت أنه وظفها وأنه طلب منهـــا تنظيم مظاهرات وتوزيع منشورات تتهم فيها أعضاء لجنـــة في وزارة التجارة والصناعة تتابع صـــفقة هـــارودز بـــأنهم يتلقون رشاوى.. فرد الفايد بكل هدوء من جديد وقال: " إنني قابلت هذه السيدة لأنها طلبت مساعدة خيرية كي تستخدمها في رفع قضية ضد عمها حول ميـــراث جـــدها فـــي بنـــك إسرائيلي"

والواقع أن هذه الصورة التي أرادوا أن يقدموها عن محمد الفايد كان له هو دور بارز فيها. إذ اعترف ذات مرت بأنه قدم رشاوى لأعضاء مجلس العموم.. وبأنه استضـــاف وزراء على حسابه في فندق "ريتس" في باريس.. وفضح كل الناس.. فما كان من جون ميجور إلا أن أطلق ضده قنابـــل اتهامات بالابتزاز. نجا منها الفايد في النهاية ولم يجد المدعي العام البريطاني في اتهامات جون ميجور ما يجعلـــه يحـــاكم محمد الفايد..

ورغم الضربات المتوالية إلا أن الفايد استقر تمامًا. استقر إلى درجة أنه رفع قيمة محلاته إلى ثلاثة أضعاف الثمن الذي اشتراها به استقر إلى درجة أنه كان يدفع أموالاً للممثل بيرس بروسنان الذي يلعب أدوار جيمس بوند كي يفتتح موسم التخفيضات في هارودز.. لقد دفع له ٥٠ ألف جنيه استرليني.. ولقد استقر حتى أنه افتتح فرعًا لمحلاته في مطار مانشستر.. واستقر إلى درجة أنه كانت له أفرع في مطارات هيثرو وفيينا وهامبورج وفرانكفورت وسنغافورة وهونج كونج وثلاثون فرعًا أخرى في اليابان.. استقر إلى درجة أنه امتلك نادي فولهام لكرة القدم. استقر إلى درجة أنه صار يلتقي بالملكة إليزابيث كثيرًا خاصة في سباقات الخيل في مضمار يملكه.. استقر إلى درجة أنه اشترى منزل دوق وندسور في فرنسا.. ذلك الملك الذي تنازل عن عرش بريطانيا كي يتزوج مطلقة أمريكية.. ثم دعا الفايد الممثلة جوان كولينز لزيارة هذا المكان معه. استقر إلى درجة أنه نظم في الرواق المصري داخل محلات هارودز حفلاً خيريًا على شرف الطبيب المرموق مجدي يعقوب وكان ضيف الشرف هو الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني. استقر إلى

درجة أنه دعا الأميرة ديانا لرحلة بحرية على يخته الخاص وفي منزل مميز مجاور لمنزله في شاطئ الريفيرا. استقر إلى درجة أنه وبعد أن انتهت معركة هاردوز بدأ مصالحة مع عدوه اللدود تيني رولاند عبر وسيط بريطاني إلا أن رولاند حين ذهب إلى مكان عقد اتفاق السلام لم يجد ممثل الفايد الذي كان من المفروض أن يحضر.

لقد هدأ الغبار، ونسيَ الجميع معركة الأصل والفصل، لكن كل الناس تذكروا هذا حين مات ابنه عماد، ورغم أن الأب قال ذات يوم في حديث مع طارق حبيب أن ابنه الأصغر من زوجته الفنلندية، والذي يجيد اللغة العربية هو صورة مكررة منه وحلمه في أن يكون على طريقه، إلا أن الأب كان مكلوما على ابنه القتيل مع ديانا. وقد كان هذا شعورًا طبيعيًا ومبررًا.. ولكن الذي لفت نظري في هذه المناسبة هو أسماء العائلات التي كتبتها أسرة الفايد في نعي عماد في جريدة الأهرام بعد وفاته.. ففي هذا النعي اعتراف بأصول العائلة وانتماءاتها... فهي كما جاء في النعي قريبة ونسيبة عائلات الفايد ومحمد إبراهيم وسالم وسلطان وصادف والبحر وأبو الفضل وعامر. وكلها عائلات ليست ذات تاريخ

كبير... فهل كان البريطانيون على حق؟ ... وهل كان الفايد فرعونًا مزيفًا؟

إن هذا السؤال هو أحد محاور الكتاب، وتدور صفحات كثيرة حوله.. لكن الكتاب أيضًا حاول – قدر الممكن– أن يقلب في كل أوراق ملف الفايد.. من عائلته الأولى إلى صهره الذي دفعه على طريق المال.. عدنان خاشقجي الذي تزوج محمد من أخته سميرة.. ومن صديقه سطان بروناي حسن بلقيه الذي كان سببًا في بعض نموه إلى غريمه ومنافسه أشرف مروان الذي وضع العراقيل في طريقه.. ومن طرق وأساليب تكون هذه الثروة الهائلة إلى الأهداف التي وظفت لها.. ومن المعارك الكبيرة حامية الوطيس إلى عمليات التجميل التي أجراها محمد الفايد كي يحسن من ملامح صورته والانطباع الذهني عنه.

إنه بالإجمال، كتاب يرصد كيف تكونت إمبراطورية الفايد، من الزواج إلى المغامرات والمعارك واللعنات والقضايا والملفات والتقارير والوثائق والتعليقات والمعارض والجمعيات والمليونيرات والملوك والأمراء والأميرات والمحاكم والتبرعات والفضائح والأسرار.. وكل شيء أمكن

التوصل إليه. وهي أشياء كلها كان بها أبطال وكومبـــارس. ودارت حول أسماء رنانة آخرها كانت الأميرة ديانا.. وقبلها كان الرئيس عبد الناصر والرئيس السادات والملـــك فيصـــل وعدنان خاشقجي وسميرة خاشقجي وأشـــرف مـــروان وآل مكتوم ومارجريت تاتشر وابنها مـــارك والـــرئيس الكـــوبي وكمال الجنزوري ومصطفي أمين والملكة إليزابيث وابنهـــا الأمير تشارلز وابنـــه الأميـــر ويليـــام وأنـــيس منصـــور.. وعشرات غيرهم...

إنه كتاب أيضًا عن العنصرية، وعن صناعة تاريخ شخص يريد أن ينسى.. وعن بلده الذي لم يستفد منه كثيـــرًا ولكنه بكى حين مات ابنه عماد.. وتذكر- هذا البلد- رغـــم كل شيء أن هذا الإمبراطور المهاجر هو في النهاية رجـــل مصري ولد وتربى في حارة ابن وكيع وعاش في الأنفوشي قبل أن يصبح مالكًا لمحلات هارودز.. أهرام لندن. وقبـــل أن يطمع في مصاهرة العائلة المالكة البريطانية.

عبد الله كمال

أكتوبر ١٩٩٧

١

الصهر اللدود

- أخي.. زوجني هذا الرجل!

" ولم تنجب منه، فطلقتـــه، وحـــين أنجب من أخـــرى شـــربت الخمـــر وبلعت الحبـــوب المنومـــة فـــانفجر مخها.. وماتت وجاء عماد ليحضـــر جنازتها.. إنها أمه. "

أخذ محمد الفايد من هذا الرجل كل شيء يجب أن يتعلمه في حياته.

أخذ منه حب المغامرة، والجرأة، والمقامرة، وتنوع النشاط، وتعدد العلاقات، وموهبة توفيق الأطراف، وجنى حصيلة هذا التوفيق التي نطلق عليها اسم السمسرة، وفوق كل هذا أخذ منه خطوة الانطلاق الأولى إلى عالم الأعمال.

هذا الرجل هو عدنان خاشقجي.

إنه الصورة الأوضح من محمد الفايد.. والشكل الأعم للحالة التي صار عليها الفرعون المصري.. كلاهما ملياردير وإن كانت ثروة عدنان أكبر. كلاهما يعمل في عدد هائل من دول العالم وإن كانت أعمال عدنان تشمل عددًا أكبر.. كلاهما ربح كثيرًا من صفقات البترول وفورة النفط في السبعينيات وإن كان عدنان قد استفاد أكثر.. كلاهما لديه عدد هائل من العلاقات المتنوعة مع السياسيين ورؤساء الدول وإن كانت علاقات عدنان أكبر.. كلاهما عمل كثيرًا في مجال العقارات والمقاولات وإن كانت شركات عدنان أكبر.. وكلاهما له صلة قوية بدول الخليج وإن كانت صلات عدنان أعمق.. كلاهما عمل منذ البداية في دول الغرب وإن كان

عدنان أسبق.. وكلاهما تعرض بعد الرخاء لحملات مختلفة في الغرب وإن كانت الحملات التي تعرض لها عدنان أكثر تأثيرًا، وكلاهما نجا من هذه الحملات لكن الفايد خرج منتصرًا ومتجهًا إلى مزيد من الإنجازات بينما تقهقر عدنان لبعض الوقت.

والمقارنة هنا ليست مجرد مقارنة بين اثنين من رجال الأعمال اللذين ينتميان إلى قومية واحدة، استطاعا اختراق المؤسسة الغربية.. وإنما هي مقارنة بين رجلين ارتباط لفترة من الوقت.. وكان سبب الارتباط هو علاقة مصاهرة.. خرج منها الأول – أي عدنان – دون أن يتذكرها كثيرًا.. وخرج منها الثاني – أي محمد الفايد– وقد استفاد تمام وتعلم الدرس وحصل على قوة الانطلاقة الأولى – هذه القوة التي حولته من ابن مدرس سكندري عادي إلى ملياردير يتحدث عنه العالم.

إنها المصاهرة التي أدت إلى ميلاد عماد محمد الفايد، أكبر أبناء الإمبراطور الذي راح في النهاية ضحية للعبة غامضة مارست فيها أطراف عديدة أدوارًا كثيرة.

لقد بدأت القصة في منتصف الخمسينيات.

في الإسكندرية، حيث كان عدنان أحد أبنـــاء ثـــري سعودي من أصول تركية يدرس في كلية فيكتوريا المرموقة والتي تعلم فيها عدد كبير من أبنـــاء الشخصـــيات العربيـــة البارزة. كان طالبًا مميزًا تمامًا. لـــيس فـــي مجـــال العلـــم والتحصيل.. ولكن في مجال الثروة والثراء.. هذا الذي حوله إلى زعيم بين زملائه، وخاصة أنـــه كـــان ينفـــق نصـــف مصروفه الذي يصل إليه من السعودية على معارفه.. فتحول إلى زعيم يتقرب منه الآخرون.

وقد كانت لدى عدنان خاشقجي أرضية عائلة قويـــة تجعله يتصرف بهذه الطريقة... فهو ولد في عام ١٩٣٥ في أسرة طبيب كان يعالج الملك عبد العزيز آل ســـعود.. وقـــد كان هذا الطبيب لافتا للأنظار تمامًا.. ويقال أنـــه أول مـــن أدخل جهاز التصوير بالأشعة الطبية إلى المملكـــة.. ويقـــال أيضًا أنه أول من أخل إلى الدولة التي كانت تعيش في حالة تخلف حضاري في ذلك الوقت جهـــاز توليـــد الكهربـــاء.. واستخدمه في منزله.. ثم مد منه بعض الأسلاك إلى منـــازل عائلات أخرى في مكة.

كان عدنان هو الابن الأكبر لهذا الرجل، الذي تجاهل فيما بعد تاريخه الطبي، وقدمه إلى الناس على أنه الأب الذي لقنه أول الدروس في عالم المال والتجارة.. فهو الذي جاء به ذات يوم وأعطاه ريالاً سعوديًا معدينا، ألقاه على سجادة ناعمة فلم يحدث صوتًا، ثم ألقاه عبر الأرض الصلدة فأحدث رنينًا بالطبع.. وكان معنى الدرس واضحًا.. فهو يطلب من ابنه ألا يلقي ماله في أي مكان.. وإنما في النقطة التي تجعله يحدث دويًا كي يلتفت إليه الآخرون فيعود الريال ريالين.

هذا الشاب السعودي المعبأ بروح المغامرة والرغبة في الربح وسماع صوت الريال وهو يرن، لا يذكر في تاريخه خلال حياته الأولى في الإسكندرية أنه كان مقبلاً على التعليم، وإنما يذكر قصة أول صفقة أتمها.. صفقة من النوع العادي.. بدأت بمعلومة من صديق ليبي يبحث أبوه عن كمية من المناشف.. ثم سعى من عدنان للعثور على مصنع يقدم إلى الأب الليبي ما يرى.. ثم إتمام الصفقة.. وبعدها حصل عدنان على مائتي جنيه من والد صديقه.. فكانت تلك هي أول عمولة حصل عليها.. تؤكد أن روح السمسار كانت مغروسة تمامًا في نفس هذا الرجل.

في هذه الفترة نشأت العلاقة بين محمد الفايد وعدنان خاشقجي.. في نحو عام ١٩٥٢.. أي حين كان عمر عدنان لا يزيد على ١٧ عامًا، بينما الفايد يكبره بست سنوات... وكان سبب العلاقة هو الجيرة.. إذ كان عدنان يعيش في شقة خاصة بأسرته في الإسكندرية... قريبة جدًا من شقة عائلة الفايد.. وتم التعارف في نفس الوقت الذي كانت فيه أسرة عدنان تنمو بسرعة الصاروخ في السعودية.. إذ حصلت في نفس العام على امتياز استخراج الجبس من إحدى المناطق في المملكة لمدة خمسين عامًا تنتهي في عام ٢٠٠٢، وأسس والد عدنان لهذا الغرض شركة كبرى اسمها " شركة النصر للتجارة والصناعة "

ولم يكن صعبًا على محمد الفايد أن يقنع الشاب السعودي الصغير، بينما هناك مئات من المصريين يسافرون إلى هذه الدولة الجديدة، بأن يوظفه في هذه الشركة.. بعد عام واحد من تأسيسها.. فسافر الإمبراطور القادم إلى السعودية بعقد عمل في عام ١٩٥٣. وبينما كان عدنان ينمو على المستوى الشخصي في الولايات المتحدة هاجرًا الدراسة التي اقتنع أنها لن تفيده، وبينما كان يحصل على بضائع أمريكية

تباع في السعودية من خلال شركة أبيه، وبينما حصل علـــى أول عمولة كبيرة من خلال اتفاقه على إنشاء مصنع طـــوب أمريكي في السعودية.. بينما كل هذا يحدث كانت العلاقة بين محمد الفايد وسميرة أخت عدنان تتوطد.. لاسيما أنها كانـــت هي الأخرى تدرس في الإسكندرية... فتزوجها محمد.

لقد بدت سميرة، التي كانت جملية إلى حد بعيد، فتاة ضعيفة أمام هذا الشاب السكندري المفعم بالأحلام والطموح، وربما أضاف حبها للإسكندرية ومصر بعدًا جديدًا إلى هـــذا الضعف، جعلها تنجرف تمامًا في حب المصري الذي سوف يتحدث عنه العالم فيما بعد.. هذا الضعف الذي جعل البعض في فترات لاحقة يؤكد أن سميرة هي التـــي طلبـــت محمـــد للزواج.. وإن كانت هذه المعلومة غير موثقة تاريخيًا تمامًا.. إلا أن طبيعة شخصية سميرة التي تجلت تمامًا في الســـنوات التالية توحي بهذا.. فقد كانت كلما أعجبها رجـــل تزوجتـــه هي.. وكانت هي التي تقوم بخطـــوات المبـــادرة الأولـــى.. وكانت تفعل ذلك مدفوعة بإحساس جارف بأنها تملـــك كـــل شيء.. ويمكنها أن تفعل أي شيء.. في البداية بسبب مركز

عائلتها المالي.. وفيما بعد بسبب حجم نفوذ أخيها الذي يبدو أنه كان يحبها تمامًا ولا يرفض لها طلبًا.

في هذه الأثناء كان عدنان يبني إمبراطوريته، يدعم موقفه أمام من يتعاملون معه بإنفاق أموال عديدة رغم أنه في هذه اللحظات التي كان ينفق فيها المال ببذخ لم يكن يملك الكثير، كان متأثرًا تمامًا بالأسلوب الأمريكي الذي يخلق الانطباع الوهمي عن حجم رأس المال.. فيبدو الأمر وكأنه يملك الكثير.. وقد نجح بهذا الأسلوب في أن يعطي انطباعًا لدى السعوديين بأنه رجل ذو خبرة كبيرة.

ولم يمض وقت طويل حتى كان هذا الشاب السعودي قد خلق لنفسه دورًا.. بين الاقتصاد السعودي الساعي للنمو والعالم الغربي الهادف إلى الاستفادة تمامًا من الفرص العديدة في بلاد النفط.. بين بلاد تريد أن تشتري كل شيء.. وبلاد تريد أن تبيع أي شيء.. ومن هنا نجحت صفقته الكبرى الأولى حين باع عددًا من الشاحنات الأمريكية للسعودية وحصل على عمولة قدرها ٥٤٥ ألف دولار.. ثم باع منها عددًا أكبر.. وساعدته هذه العملية في أن يدخل مجال الربح الأكبر.. مجال الأعمال العسكرية.. وكان أن حصل على

عقد لشركة أمريكية كي تقوم بإدارة قاعدة الظهران الجوية.. وكان أن تفتحت عيونه، وامتدت أصابعه، واختـــرق جســـده عالمًا سريًا من نـــوع غـــامض.. يـــربح المتعـــاملون فيـــه الملايين.. وتحرقهم أحيانًا عمليات الخروج عن قواعد اللعب المفترضة.. إنه عالم تجارة السلاح.

ولم يكن عدنان قد أكمل عامة التاسع والعشرين حتى كانت قد وصل إلى واحدة من أضخم شركات الســـلاح فـــي العالم.. شركة " لوكهيد الأمريكية " التي كانـــت فـــي عـــام ١٩٦٤ تعطيه ألفي دولار شهريًا مقابل دراسات عن السوق.. ورغم أنه فشل في بيع مجموعة من طائرات " ستارفايتر" في هذا العام، إلا أنه باع أنظمة دفاع، وتطور الأمر فـــي عـــام ١٩٦٧ حين حقق مبيعات لصواريخ هوك بلغت قيمتها مليارًا و ٤٠٠ مليون دولار. ثم باع طائرات ســـي – ١٣٠ للنقـــل العسكري، وطائرات " نورثورب" المقاتلة، وطائرات " إف– ٥" ومعدات بلجيكية وطائرات بريطانية. وتضخمت ثروتـــه يوما تلو آخر.. خاصة إذا علمنا أنه باع معـــدات عســـكرية فرنسية بنحو ٦٠٠ مليون دولار– في ذلك الوقت – وكانـــت عمولته ٣٥ مليون دولار.

واقع الأمر أن المقارنة في تلك الفتـــرة بـــين الفايـــد وعدنان تظلم الأول تمامًا، فعلى الرغم من أن الفايد كان قـــد دلف إلى الأسواق العالمية بعدة مئات من آلاف الدولارات إلا أن عدنان كان قد تجاوز هذا السقف تمامًا.. لكن الفايد فيمـــا يبدو كان يعي درس عدنان جيدًا، ويحاول بقدر الإمكـــان أن يخترق الأسواق من خلال علاقات شخصية عديدة.. كما فعل عدنان.. الذي كان نموذجًاا فريدًا في هذا السياق.. وبدا وكأنه الشخص الذي أرادته كل الأطراف في هذه الفترة التاريخيـــة كي يلعب الدور المطلوب.

وفيما بعد سوف نرى كيف حول الفايد أنشطته إلـــى مؤسسة عائلية، وهو نفسه ما كان عدنان قد فعله تمامًا مـــن قبل.. وبالتحديد في بداية السبعينيات.. حين ضم إليه أخويـــه عادل وعصام في شركة أطلق عليها اسم " الثلاثيـــة " – أو " ثرياد" كما تقول مجلة " فورتشيون" الأمريكية فـــي تحقيـــق نشرته عن عدنان خاشقجي في يونيو ١٩٧٧.

لقد كان دور عادل هو إدارة أعمال هذه الشركة في السعودية، وكان دور عصام هو إدارة جناح للشركة يعمـــل

في مجال التصميم المعمـــاري وإنتـــاج المفروشـــات وإدارة الفنادق.

الشقيقة الأخرى، سميرة، كانت بعيدة تمامًا عن كـــل هذا. ذلك أنها بعد أن لعبت دورًا هامًا في حياة محمد الفايـــد حين أدخلته عبر الزواج إلى عالم عائلة خاشقجي فـــي عـــام ١٩٥٤.. عادت وتركته. وتم الطلاق في عام ١٩٥٦... بعد أن أنجبت من محمد الفايد طفلاً اسمه عماد.. هو ذلك الشاب الذي صار العالم كله يدلـــِّله باسم دودوي قبل أن يموت فـــي حادث نفق ألما المعروف..

وحسب وصف الصحفي المعروف ناصر النشاشيبي في كتابه " حضرات الزملاء المحترمين" فإن سميرة كانـــت حائرة.. بين ثلاث صفات.. فهل هي أنثى تريـــد أن تبقـــى زوجة وحسب.. وهل هي سيدة سعودية من عائلة ثرية تريد أن تقدم نفسها إلى العالم على أنها أديبة وصحفية؟ ... أم هي أخت الملياردير عدنان خاشقجي تعيش فـــي كنفـــه وتـــنعم بملايينه وتتسلى بعشرات من قصصه؟ وقد أجاب النشاشيبي بأنها اختارت في البداية أن تكون زوجة حين اقترنت بمحمد الفايد..

لكن سميرة كانت في حقيقة الأمر شخصية مضطربة تعيش تنازعًا بين هذه الصفات الثلاث، وقد حاولت أن تنجح في أن تكون زوجة ففشلت عدة مرات. وحاولت أن تكونه صحفية وأديبة، لكن نجاحها لم يكن ملكها وإنما ملك الأموال التي كانت تشتري بها عشرات من الصحفيين العرب الذي كانوا يكتبون في مجلتها " الشرقية" ويخرجون من عندها يمجدون في موهبتها المزعومة مقابل ما يكسبون منها... وبقيت في النهاية هي أخت عدنان، التي تريد أن تصنع لنفسها اسمًا، ويوافق أخوها على أن يلبي لها رغباتها، وأن يعطيها مزيدًا من الأموال لتنفقها على أزواجها وصحفييها، بل يوظف أزواجها أيضًا لديه.

هكذا تزوجت سميرة محمد الفايد ثم طلقت منه، وتزوجت ياسين ابن الشيخ يوسف شاهين وكيل وزارة الخارجية السعودية ثم طلقت منه، وهكذا أصدرت مجلة كانت تعقد الاتفاقات على تحريرها فوق يخت أخيها عشرة آلاف دولار في الشهر لصحفي يعمل مستشارًا لديها، وهكذا كانت تدفع مائة ألف دولار في الشهر مقابل نقل مواد مجلة

"إل" الفرنسية في مجلتها العربية، وهكذا كانت تدير هذه المجلة من مكاتب في القاهرة ومدريد وباريس.

هذه السيدة المهتزة، لم يكن من الممكن أن تكمل المسيرة مع محمد الفايد، ليس فقط لأنها كانت تدمن الخمر، ولكن أيضًا لأنها كانت ضعيفة تمامًا.. تهوى الشباب وتتزوجهم، ويمكن أن تدخل عليها صحفية لتروي لها منامًا عن أنها رأتها في الحلم ترتدي ملابس بيضاء وتركب حصانًا أشهب.. فتتراجع سميرة عن أن تفصل هذه الصحفية من مجلتها.

رغم ذلك كان هناك عدد من الصحفيين يقدم سميرة على أنها صحفية موهوبة وأديبة مرموقة.. وكمثال فإن صحفيًا كتب في جريدة " الأيام" الخليجية في عام ١٩٧٨ يقول: " إن هذه السيدة التي توقع مقالاتها باسم " بنت الجزيرة" ظاهرة.. وقال آخر: إنها تبنت قضايا المرأة وقدمت أفكارًا جديدة ولها موهبة إبداعية ظهرت في سن مبكرة "

وكانت سميرة في الواقع تحاول أن تقدم نفسها بشكل أكبر من هذا، إذ عملت مثلاً على تأسيس جمعية نسائية هي الأولى من نوعها في السعودية.. طَنْطَنَتْ لها الصحف

كثيرًا.. ثم اتضح أنها لم تقم بشيء. ودعت في إحدى المرات لمسابقة اختيار الابن المثالي ولإنشاء عيد اسمه عيد الأسرة في محاولة منها لمحاكاة فكرة "عيد الأم" التي قدمها الكاتب الكبير مصطفي أمين.. والذي كان هو وأخوه على أمين من المستشارين لديها.

لكن سميرة في حقيقة الأمر كانت امرأة مرفهة، تنتقل بعواطفها من رجل إلى آخر، وهكذا وجدت نفسها خلال حفل أقيم في السفارة اللبنانية بالقاهرة احتفالاً بالعيد القومي للبنان تقع في حب شاب لبناني لم يكن يزيد على كونه موظفًا إداريًا في السفارة.. ولا تزيد سنه على ٣٠ عامًا، ولا يتحرك راتبه عن سقف الألف ليرة، وأمه كانت مطربة في الملاهي.

وتجاوزت سميرة كل هذا، وقررت أن تتزوج هذا الشاب الذي كان اسمه عبد الرحمن الأسير، وأن تصنع منه رجلاً من نوع خاص، حين ألحقته بسرعة في مؤسسات أخيها.. وهي تريد أن تجعل منه " أشهر رجل أعمال وأشهر صحفي في نفس الوقت"

هذا الشاب هو الذي قضى على تلك المـــرأة التـــي كانت زوجة ذات يوم لمحمد الفايد..

لقد دخل إلى عالم عدنان، ولم يفهم قواعـــد اللعـــب، فراح يتجاوز عددًا هائلاً من الخطوط الحمراء.. ليس فقـــط في العمل.. ولكن أيضًا في حياة ســـميرة.. وبـــدا وكأنـــه لا يدرك أن حياته مرتبطة بهذه الزيجة.. وكان أن أخـــذ مـــن سميرة الكثير.. المال والهدايا بلا حساب... في نفس الوقـــت الذي مضى فيه ينعم بشبابه.. فيتأنق.. وينفق كثيرًا.. ويعين جيشًا من السكرتيرات في مكاتبه.. ويغازل النساء علنًا.. بل تصل معلومات إلى سميرة عن خياناته المتعددة.

ولم يفهم عبد الرحمن المعادلة. كان يعطـــي الســـيدة العجوز بعض شبابه.. ويضن عليها بـــالكثير.. رغـــم أنهـــا اشترت قصرًا في مدريد ثمنه خمسة ملايـــين دولار عـــاش معها فيه.. ورغم أنها وظفت عددًا هائلاً من نساء عائلتـــه.. وأغدقت على أمه بعشرات الهدايا.

ولم يدرك عبد الرحمن أن المرأة التي يقولـــون لهـــا أنها صحفية موهوبة وأديبة مرموقة تريد أن تنسى أنها بلغت سن اليأس. وتريد أن تنجب من جديد.. بعد أن أنجبت عمـــاد

من الفايد وجمانة من ياسين.. تريد أن تثبت أنها لم تزل امرأة قوية وأنثى خصبة وتربة لم تجدب.. وإنما قادرة على أن تطرح المزيد... ولم يلحظ رحلاتها المتكررة لكل كبار أطباء أوربا بحثًا عن طفل.. ومضى في علاقة خفية مع إحدى سكراتيراته الأسبانيات.. فطلقته هو الآخر.

في هذه الأثناء كان الفايد قد تجاوز هذه السيدة تمامًا. وبينما هو غارق حتى أذنيه في معركة هارودز في بريطانيًا... كانت هي تحاول أن تنسى مأساتها مع عبد الرحمن الأسير.. وتقول أنها تعرضت لمحاولة اختطاف في باريس.. وتروي كيف أنها كانت تركب سيارتها الرولزرويس، وبينما يفتح لها سائقها المغربي الباب.. هاجم مختطف السائق، وأصابه بجرح خطير، وقاد الآخر السيارة، وظن الاثنان أننا معهما.. في حين نجت هي من عملية الاختطاف حين سطقت من الرولزرويس.

هذه القصة لم تنسها عبد الرحمن الأسير.

وكانت بين حين وآخر تتصل من شقتها الفاخرة في حي الزمالك بالقاهرة بابنتها التي كانت تعيش في أسبانيا لتسأل عن عبد الرحمن. وذات يوم أجابتها ابنتها بأن زوجة

عبد الرحمن الأسبانية قد حملت واقتربت من الولادة. في هذه الليلة انهارت سميرة.. لم تفلح كل ملايين أخيها في إنقاذها من أزمة نفسية حادة.. لم تستطع كل هذه السمعة الوهمية حول الموهبة الصحفية والأدبية أن تبعدها عن أزمة امرأة تخطت منتصف العمر ولم تستطع الإنجاب من جديد.. وكان أن ابتلعت كمية هائلة من الحبوب المنومة.. اختلط تأثيرها مع تأثير الخمر.. فحدث انفجار دموي في المخ.. أدى إلى الموت..

لقد فُسر الأمر على أنه قضاء وقدر.

وقال تفسير آخر أنه انتحار.

لكن الذي يهمنا في هذا الأمر أن محمد الفايد لم يهتم كثيرًا، فقط واسى ابنه عماد الذي سافر بسرعة إلى القاهرة ليحضر جنازة أمه. وأرسل برقية عزاء إلى خاله عدنان خاشقجي.

لقد بدا وكأن جناحي الأسرة.. الفايد من ناحية.. وعدنان من ناحية.. ليست لهما علاقة حالية على الإطلاق.. وبدا وكأن منافسات الأسواق قد خلقت أجواء العداء بين الجانبين.. وقد تأكد هذا فيما بعد مرتين. الأولى: حين قبل

عدنان خاشقجي دعوة للظهور في برنامج تليفزيوني في بريطانيا حين كانت هناك أطراف تريد أن تبحث في أصل وفصل الفايد، وقال في هذا البرنامج أن علي شقيق محمد الفايد كان يعمل لديه في شركته.

كان معنى هذا واضحًا، وهو أن عدنان يريد أن يدعم الأقوال التي ترى أن أسرة الفايد ليست عريقة.. وإنما هي أسرة عادية.

ولم يلغ هذا العداء المتبادل صمت محمد الفايد وخروج أخيه ليؤكد لوسائل الإعلام أنه لم يقابل عدنان خاشقجي سوى خلال فترة الدراسة الجامعية في كاليفورنيا.. فحسب..

المرة الثانية: التي أكدت حالة العداء بين الفايد وخاشقجي كانت حين مات عماد الفايد.. ولم يحضر خاله عدنان جنازته. ونشر أبوه نعيًا في جريدة الأهرام.. تجاهل فيه تمامًا ذكر اسم الخال خاشقجي.. فقط قال أنه " ابن رجل الاقتصاد محمد الفايد والمغفور لها المرحومة سميرة خاشقجي" وفي نهاية النعي استمر التجاهل.. حين قال: " إنه

قريب ونسيب عائلات الفايد ومحمد إبراهيم وسالم وسـلطان وصادق والبحر وأبو الفضل وعامر".

ولكن هل ينفي هذا التجاهل ما حفره التـاريخ مـن علاقة وطيدة بين الفايد وخاشقجي؟.. هل ينفي أن الفايد بـدأ في أحضان عدنان وعائلته؟

لا أظن!

٢

الثروة المجهولة

- اسألوا عني في دبي.. لقد بنيتها

" ولم تكن عائلته عريقة، ولم تتاجر في القطن، إنه مجرد ابن مـــدرس مصـــري عادي، عمل لبعض الوقت بائعًا للكوكاكولا.. وماكينات الخياطة"

كان السؤال الملح دائمًا في وسط كل هذه المعركة التي فجرت اسم الفايد على الساحة في بريطانيا والعالم – معركة هارودز – هو: من أين جاءت ثروة محمد الفايد؟ وكيف جمع كل هذه الأموال كي يستطيع بين يوم وليلة أن يشتري محلات هارودز بـ ٦١٥ مليون جنيه استرليني؟

لقد ظل هذا السؤال سيفًا مسلطًا على رقبة العائلة سنوات طويلة.. ولم يزل يلوح به من حين إلى آخر، حتى بعد أن حسمت معركة هاردوز، التي رفعت بالفعل قيمة ثروة محمد الفايد الآن، بعد أن زادت قيمة المحلات إلى نحو ثلاثة أضعاف السعر الذي كانت عليه حين اشتراها!

وبمعنى أوضح فإن ما يملكه الفايد في "هارودز" وحدها يصل الآن إلى ١٨٠٠ مليون جنيه استرليني.. أي ما يقرب من ثمانية مليارات جنيه مصري.. وهو ما يوازي عشر الدخل القومي المصري في عام.. بخلاف أرقام أخرى يملكها وبعيدة تمامًا عن حسابات هارودز التي لا يقتصر نشاط محمد الفايد عليها بالطبع.

ولكن الأزمة الحقيقية ليست في الوضع الحالي.. وإنما في الوضع السابق.. أي في الطريقة التي حصل بها

الفايد على الأموال عشية شرائه لأسهم شركة " هاوس أوف فريزر"

ولقد حاول محمد الفايد أن يبعد هذا السيف المسلط على رقبته دائمًا، في تلك الأثناء التي حاول تيني رولاند أن يبعده عن هارودز. وكان محمد الفايد يجيب ويقول ما هي مصادر ثروته.. ولكن أطرافًا عديدة كانت ترفض إجاباته، خاصة أن بعضها غير موثق.. ومن هنا كان منافسوه يعيدون تسليط السيف على رقبته.. ويبحثون عن أصوله ليؤكدوا أنه حصل على هذه الأموال بطرق غامضة.. أو أنها ليست له حسب ما جاء في روايات أخرى.

لقد كان هدف الحملة التي يقودها تيني رولاند، منافسه اللدود على هاردوز، هو أن يثبت اتهامه له. ومن هنا نجحت ضغوطه في أن تقرر السلطات البريطانية إرسال ضابطين من البوليس البريطاني- سكوتلانديارد- إلى مصر.. كي يفحصا ويُنقِّبا في أصول وجذور عائلة الفايد وإجراء تحريات وتحقيقات عن مصادر ثروة العائلة.. وتحديدًا فيما يخص محمد وعلى وصلاح. وفي أبريل نهايته بالتحديد، وصل الضابطَان إلى مصر.. وقدَّما طلبًا رسميًا

إلى النائب العام في القاهرة كي يوافق على شرعية مهتمهما. لكن النائب العام رفض.. وكان سبب الرفض هو أنه يجب أن يكون هناك طلب رسمي من المدعى العام البريطاني.. باعتباره جهة الاختصاص. وفيما بعد تأكد الرفض حين قال النائب العام المساعد في مصر: إن مصر دولة ذات سيادة ولا يجوز لجهة تحقيق أو تحرٍ أجنبية أن تمارس مهام كهذه دون صدور حكم قضائي تعترف به مصر أولاً "

كان معنى مهمة الضابطين واضحًا. وكانت له أبعاد غير مقبولة سياسيًا أمنيًا وسياديًا.. وغادر الضابطًان مصر بخُفيٍّ حُنين. لكن هذا لا ينفي أن هناك مندوبين رسميين آخرين ظهروا على الساحة في مصر من أجل نفس الغرض.. في وقت لاحق.. لكن الذي حدث هو أنه تمت حركة التفاف ذكية حول القرار.. وبدلاً من أن يتم التحري عن طريق خبراء الأمن.. تم عن طريق رجال الصحافة والتليفزيون وكافة وسائل الإعلام الأخرى.. في بريطانيا وغيرها.

وفي بداية مايو ١٩٨٩ بدأ تنفيذ الخطة البديلة.

وتقدم بيتر ويكمان، وهو صحفي بريطاني يعمل مراسلاً لجريدة الأوبزرفر بنظام القطعة.. سبق أن كتب عدة مقالات بها ضد الفايد، وجوليان مانيون.. وهو صحفي ألماني يعمل معلقًا في محطة تليفزيون بريطانية.. تقدما بطلب إلى المركز الصحفي التابع لهيئة الاستعلامات مع مصور بريطاني للحصول على تصريح بإجراءات تصوير فيلم إخباري..

لم يكن بالطلب أي ذكر لعائلة الفايد.. وبالتالي فقد أعطتهم مصلحة الاستعلامات التصريح.. تحت بند " تصريح تغطية إعلامية" لوفد محطة تايمس وهي محطة تقوم بإعداد وإنتاج البرامج لصالح القناتين الثالثة والرابعة في بريطانيا.. وغيرهما من تليفزيونات العالم. وكانت مدة التصريح قاصرة على الفترة بين ٩ و ١٤ مايو ١٩٨٩.. وحددت فيه الأماكن المراد تصويرها بثلاث مناطق: " مشاهد عامة لشوارع وميادين ومباني القاهرة والجيزة الرئيسية " و" مشاهد عامة لشوارع وميادين ومباني الإسكندرية الرئيسية " و" منطقة الأهرامات "

وفي نهاية التصريح الذي وقعه مدير المركز الصحفي قالت هيئة الاستعلامات: " هذا وقد وافقت الجهات الأمنية المعنية على التصوير، وبرجاء تسهيل مهمة الوفد "

هكذا خلا التصريح من أية أمور لها علاقة بالفايد وأسرته، لكن الذي حدث هو أن البريطانيين الثلاثة سافروا رأسًا إلى الإسكندرية، وبدأو بالفعل تصوير حواري منطقة الجمرك كي يقولوا أنه هنا ولد ونشأ محمد الفايد.

وفيما يبدو فإن جوليان مانيون تحديدًا كانت تتابعه عيون محمد الفايد. إذ اتضح فيما بعد أنه كان قادمًا من رحلة إلى سلطنة بروناي قابل خلالها السلطان وسأله عن علاقته بالفايد.. وكان مثيرًا أنه حين وصل جوليان مانيون إلى القاهرة لإتمام المهمة الجديدة كان صلاح الفايد موجودًا في مصر في نفس الفترة.. وهو أمر قلما يحدث. وفي غضون هذا، ومما يزيد من علامات التعجب في القصة، فإن مشادة كبرى حدثت بين المصورين وأعضاء الفريق التليفزيوني وسكان الحواري التي كانوا يصورونها. وظهر السكان الفقراء في دفاعهم عن أسرة الفايد وسمعتها وكأنهم

مشحونون تمامًا بتفاصيل القضية.. وبـــأن هنـــاك مواطنًـــا مصريًا يريد هؤلاء أن يسيئوا إليه.

والطريف أن جريدة الوفد حين نشرت ذلك الخبر بعد ذلك أكدت أن أشرف مروان معاون وشريك تيني رولانـــد كان موجودًا في الإسكندرية، وقت تصوير الفيلم الإخباري.. بينما رأت " مايو" على لسان رئيس مجلس إدارتها الراحـــل عبد الله عبد الباري أن كل قصـــة الاعتـــداء علـــى فريـــق التليفزيون ملفقة. وأن البلاغ الذي تقدم به هؤلاء إلـــى قســـم المنتره- رغم أن الحادث جرى في قسم الجمرك- وزعمـــوا فيه أن عائلة الفايد هي التي حرضت الأهالى على ضـــربهم إنما هو بلاغ ملفق.. بدليل أن الواقعة- كما يقـــول عبـــد الله عبد الباري- كانت تحدث بينما أفراد عائلة الفايد في لنـــدن، وصلاح فايد في القاهرة طوال اليوم.

وكان موقف فريق التليفزيون البريطـــاني ضـــعيفًا.. خاصة أن التصريح الذي حصلوا عليه لم تكـــن بـــه علـــى الإطلاق أية إشارة إلى منطقة الجمـــرك وحـــواري وأزقـــة الإسكندرية.. ولم يكن غريبًا أن يغادروا البلاد بسرعة.. بعد أن قدموا البلاغ، الذي تابعته لبعض الوقت مساعدة القنصـــل

البريطاني في الإسكندرية.. ثم انتهى الأمر.. وخمدت نيران القصة.

بعد هذا بيومين فقط كان محمد الفايد يظهر في لقطة مصورة مع الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا حين كانت تحضر سباقًا للخيول.. في مضمار يملكه.. وكانت الصورة ذات مغزى.. إلا أن هذا لم يكن ينفى أن سيف الأسئلة التي تبحث عن مصدر ثروة الفايد كان مسلطًا لم يزل.. وأن هذه الأسئلة ظلت تطرح من خلال الصحف وبرامج التليفزيون.

وصارت مصر هدفًا للمراسيلن من كل أنحاء العالم.

واستُدعيَ محمد فرغلي باشا، ملك تجارة القطن القديم من عزلته، على يد مراسل لمجلة شتيرن الألمانية.. وسأله عن أصول الفايد، وهل هو كما يزعم كان ملكًا من ملوك القطن، وأنه كان من زُرَّاعه ومُصدِّريه، وأنه كان يملك سفنًا عديدة.. وأجاب فرغلي باشا الذي كان قد بلغ الثمانين من عمره وهو ملفوف في بطانية وتقف بجواره ابنته ترعاه.. أجاب بالنفي. وقال: إنني لم أسمع هذا الاسم من قبل.

وفيما بعد اتضح أن مراسل شتيرن هو نفسه مراسل جريدة الأوبزرفر، الذي تعرَّض لعلقة ساخنة في حي الجمرك بالإسكندرية. وهو السبب الذي دعا محمد الفايد للاعتراض على إذاعة البرنامج الذي تم تصوير بعض أجزائه في القاهرة.. لكن هذا الاعتراض لم يعطل الإذاعة..

وعلى الرغم من أن الفايد كان لديه رد جاهز على كل نقطة تثار ضده، إلا أنه كان يعاني من السيف المسلط على رقبته.. وظل يتعرض لحمله كان هدفها يبدو كأنها تريد أن تلقي عليه كل يوم مزيدًا من الوحل.. عل بعضه يلتصق به،، والتصق بعضه فعلاً في ثياب الفايد رغم عمليات الاغتسال التي كان يقوم بها كل يوم.

والواقع أن هذه المحاولات العديدة التي قامت بها صحف التليفزيون لم تجب عن السؤال الهام، وهو: من أين جاءت ثروة الفايد؟ وهي كانت دومًا تلقي فقط بالسؤال مع إشارات خفية إلى أن المصدر ليس واضحًا.. وكانت دومًا تقفز من بداية وصوله إلى لندن وحتى مرحلة شراء هارودز، ناسية تمامًا هذه السنوات الطويلة بين منتصف الستينيات ومنتصف الثمانينيات التي تكونت فيها ثروته بالفعل.

لقد ولد محمد- الشقيق الأكبر الذي يحظى بالشهرة- في عام ١٩٢٩، وكان أبوه مدرسًا عاديًا يعيش في حي الأنفوشي. التي لم تكن تبعد عن منزل الأسرة في الأنفوشي كثيرًا.. إذ كانت موجودة في منقطة أبو العباس.. لكن، لأنها كانت تشغل قصرًا قديمًا تهدمت تمام في بداية الثمانينيات.

هذا المدرس العادي لم تكن له علاقة واضحة ومؤكدة بمدينة فايد التابعة لمحافظة الإسماعيلية، لكن هناك من قال فيما بعد أن اسم المدينة مرتبط باسم الأسرة.. كنوع من إكساب العائلة صفات من نوع خاص. وقد ظل هذا المدرس- الذي لا يعيبه بالطبع كونه مدرسًا – يعيش في شقته تلك بحارة سيد الوكيعي في المنزل رقم (٥)، المكون من أربعة طوابق، والذي كان يملكه بالكامل، حتى باعه باستثناء شقته ثم باعها بدورها قبل بداية الستينيات.

وترى بعض التحريات التي أجرتها جهات غربية كانت تنقب في أصل وجذور العائلة أن محمد الفايد عمل في بداية شبابه في أعمال تجارية بسيطة.. بدأت بتسويق الكوكاكولا ولم تنته بتسويق ماكينات الخياطة. وعلى الرغم من أن تلك واحدة من الفترات المظلمة في تاريخ حياة الفايد

لندرة المعلومات، إلا أنه ليس هناك ما يؤكد أن هذه الأسرة كانت ذات باع في مجال الزراعة وتجارة القطن.. فقط يمكن استنتاج أن هذا الرجل الذي كان يعمل في مجال التعليم أنجب ثلاثة شباب، كل منهم كانت لديه رغبة حادة وواضحة في النمو وهجر الحياة الرتيبة.

وإن هذه هي صفات أغلب شباب هذه المدينة الساحلية الجميلة، الإسكندرية، حيث يتعلمون من البحر حب الترحال والرغبة في اكتشاف المجهول والاندفاع في اتجاه المغامرة.. التي قد تصبح مقامرة.. والحلم بحياة من نوع مختلف يخفيها البحر خلف مياهه العريضة.. في أوربا.

لكن محمد الفايد لم يتجه في البداية إلى الشمال، وإنما اتجه إلى الشرق. حيث السعودية .. بعد أن تم التعارف مع المراهق السعودي المغامر هو الآخر عدنان خاشقجي والذي كان يدرس في كلية فيكتوريا بالإسكندرية. ففي عام ١٩٥٢، أي في نفس السنة التي قامت فيها ثورة يوليو كانت عائلة خاشقجي- كما أوضح ذلك فصل سابق- قد حصلت على امتياز استخراج الجبس من الأراضي السعودية عبر شركة " النصر للصناعة والتجارة " حسب اتفاق يمتد إلى الخمسين

عامًا وينتهي في عام ٢٠٠٢، وفي عام ١٩٥٣ كان محمد الفايد قد التحق بعمل مميز في هذه الشركة. وفي عام ١٩٥٤ كان قد اندمج بقوة أكبر في عائلة خاشقجي حين تزوج من أخت عدنان.. سميرة، وصار واحدًا من الرجال البارزين في نشاط الأسرة السعودية التي كان ذكاء عدنان قد بدأ يحولها إلى مؤسسة أكبر.. نشاطها ليس قاصرًا فقط على السعودية.

وفي العام التالي أنجب محمد الفايد ابنه الأكبر عماد. وفي العام الذي تلاه كان قد طلق سميرة.. أي في عام١٩٥٦.

هذه ا لسنوات الأربع كانت هي الأكثر تميزًا في حياة هذا الشاب السكندري الطموح، بمعنى آخر كانت هي التي وفرت لمحمد وأخوته " الخميرة " الأولى لنمو الثروة. إذ سرعان ما أسس الأخوة الثلاثة أول شركة باسمهم في نهاية هذا العام – ١٩٥٦ – هي شركة " فاروس " التي كانت تعمل في نقل الأثاث بين المدن. وبعدها بسنوات صادف الأخوة الثلاثة رجل أعمال يونانيًا من بين هؤلاء الأجانب الذين كانوا يعيشون في مصر قبل الثورة.. ولم

تعجبهم أحوال الدولة بعد الثـــورة .. وقـــرروا مغادرتهـــا. واشترى أولاد الفايد منه شركة سياحة يملكها، كان اســـمها " شركة دي كاسترو للسياحة" وصار اسم الشركة هو " شركة فايد للسياحة " .. ولم يشـــأ الإخـــوة أن يخســـروا العلامـــة التجارية القديمة فجعلوا للشركة اسمًا ثانويًا آخر هو " خلفاء دي كاسترو وشركاه " ولم يتوقفوا في هذا المجال عند هـــذا الحد. وانطلقوا إلى إنشاء شركة أخرى هي شركة " الشـــرق الأوسط للسياحة والتوكيلات الملاحية "

وعلى الرغم من أن محمد الفايد يزعم أن دولة جمال عبد الناصر قد أممت عددًا كبيرًا من شركاته " لقد أمم كـــل شيء باستثناء قلبي وعقلي "إلا أنه ليس من الواضح أن الفايد كان أكبر الخاسرين في عمليات التـــأميم التـــي بـــدأت فـــي الستينيات.. وإن كان من المؤكد أنه وإخوته قد اتجهوا إلـــى جولات مختلفة في العالم.. من الخليج إلى أوروبا ومن آسيا إلى الولايات المتحدة.،

وقبل أن تبدأ عملية الاستقرار الكبرى للإخوة الثلاثة في لندن، بينما الأب وابنتاه صفية وسعاد أختا محمد يعيشون في الإسكندرية، كان أول ظهور دولي لمحمـــد الفايـــد فـــي

جزيرة هايتي عام ١٩٩٦، حين أسس شركة للعمل في أعمال الموانئ برأس مال تقول التقديرّات البريطانية أنه لـم يكـن يزيد على مائة ألف دولار فقط.

هذا الرقم لو ذكر في مصر في ذلك الحين كان يعتبر ثروة، إذا أدركت أن وزير المالية كان يمنح الموظف الكبير المسافر إلى الخارج بدل سفر قد لا يزيـد علـى خمسـين دولارًا غير. لكن الفايد الذي اختار " هايتي" لبدايـة أحـد أنشطته الدولية كان بهذه الخطوة يكشف عن رجل أعمـال من نوع مختلف، تعلم بعض القواعد، لاسيما أن هايتي واحدة من مناطق العالم التي يقبل عليها المستثمرون حيث القوانين والضرائب أخف وطأة من أماكن أخرى.

في هذه الفترة، من المؤكد أن الفايد كان يملك أكثـر من المائة ألف دولار بكثير، وأنه رغم خسارته التي يتحدث عنها من التأميمات، إلا أنه استفاد أيضًا حين انتهز فرصـة هروب الأجانب من مصر واشترى من مواطن يوناني آخـر اسمه " لابورتا " قصره الفخيم في حي فيكتوريا العريق فـي الإسكندرية.. وهو قصر لم تزل العائلة تملكه ويمتـد علـى مساحة ٣٥ ألف متر مربع، وبه حديقة رائعة وحمام سـباحة

كبير، وتماثل من النحاس.. ولا يزوره الآن سوى صلاح الفايد الذي يبدو وكأنه هو المنوط من جانب الإخوة بإدارة أعمال وشئون الأسرة في مصر.. بعد أن استقروا في الخارج.

ولقد كان صلاح حريصًا على الاستقرار بشكل أسرع من أخويه، إذ تزوج من إيطالية في عام١٩٧٠، لكن هذا الزواج الاستثنائي لم يعطل الإخوة الثلاثة عن أن يتحركوا كوحدة واحدة في نشاطهم المحموم نحو الثورة. وفي حين كانوا قد بدأوا العمل في مجال البقالة في لندن من خلال مجموعة من المحلات الصغيرة والمتنوعة في العاصمة البريطانية.. كان الثلاثة يحاولون الكسب الأكبر من خلال أنشطة مختلفة في الخليج.. وتحديدًا في الإمارات العربية.. وخاصة في دبي.

إننا لو قفزنا عدة سنوات إلى الأمام سوف نتأكد من حجم ونوع العلاقات التي كونها الإخوة الفايد في الإمارات. وهو ما تثبته برقية أرسلها الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات إلى محمد الفايد في مايو ١٩٨٩ حين حكم له مجلس اللوردات البريطاني بأحقيته في امتلاك محلات

"هاردوز".. لقد قال الشيخ زايد في البرقية: " تلقينا بسرور بالغ نبأ القرار المنصف الذي جاء صفحة ناصعة لكم، ووضع حدًا لكل الأقاويل والمحاولات المغرضة التي استهدفت النيل من مكانتكم، وحرمانكم ثمرة كفاحكم وجهودكم. وإنا إذ نبعث لكم بخالص تهانينا القلبية، أتمنى لكم مزيدًا من التوفيق والنجاح، يفخر به أهلوكم ومحبوكم "

وإذا ما عدنا للوراء، حيث بدأت علاقة الفايد بدبي، فإنه يقول: أنا الذي بنيت دبي، وليس عليكم إلا أن تسألوا " كوستين " أو " برنارد صلي ". وهي أسماء شركات بريطانية. قالت إحداها فيما بعد أن محمد الفايد قد ساعدها في الحصول على عروض أعمال في الشرق الأوسط، بلغت قيمتها قرابة بليون جنية استيرليني.. وقد كانت هذه الشركة هي مجموعة " كوستين"

إن احتساب نسبة عمولة قد لا تقل عن ٥ في المائة من قيمة هذه العقود، في أسوأ الأحوال، مقابل سمسرة ووساطة، تعطي فكرة عن حجم الأموال التي جناها الفايد من هذه الصفقات وحدها.. فهي تبلغ نحو ٥٠ مليون جنيه استيرليني.

والواقع أنه بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥ كان محمد الفايد قد دخل في عدة صفقات في مجال البترول، وحصل على امتيازات عديدة في دول الخليج، وأعطى مجهودًا كبيرًا للعمل في مجال العقارات.. منحته كلها علاقات وثيقة مع آل مكتوم حكام دبي توجت في عام ١٩٧٥، حين تم بناء المبنى الفخم المعروف في دبي باسم مركز التجارة الدولي، وحصل محمد الفايد في ذلك الوقت على عقد إدارة المبني حتى عام ٢٠٠٠.

ولسبب غير واضح فإن المبنى الذي يملكه آل مكتوم، ويضم مكاتب إقليمية لشركات عالمية وبه قاعات للمؤتمرات والمعارض وأفرع الشركات.. صار فيما بعد هو نقطة الخلاف بين الفايد وآل متكوم، حين قررت الأسرة الخليجية فجأة إلغاء عقد الإدارة وسحبه من الفايد.

في هذا الخلاف طلب الفايد ٤٠ مليون جنيه استرليني كتعويض، ورفع الأمر إلى غرفة التجارة الدولية طالبًا التحكيم.. وهدد في عام ١٩٩٥ بأنه سوف يطلب إتمام الحجز على نحو ٨٠٠ فرس من الجياد الأصلية التي تملكها

عائلة آل مكتوم في بريطانيا، وتزيد قيمتها على بليون جنيه استرليني.

لكن هذا التصعيد من جانب محمد الفايد، الذي كان قد بلغ في هذه الفترة قوة بعيدة، قابله تصعيد آخر في داخل دبي نفسها.. فبعد نحو شهرين من هذا أعلنت إمارة دبي أن الشركات التجارية، التي يملكها محمد الفايد ارتكبت مخالفات قانونية، تستوجب عدم التعامل معها من مختلف الدوائر والمؤسسات الحكومية المحلية والاتحادية لأن وجودها في الإمارت غير شرعي.

كان من الواضح أن النزاع لم يعد قاصرًا فقط على إدارة المركز الدولي للتجارة والذي يتكون من ٣٩ طابقًا، وإنما امتد ليشمل أنشطة أخرى يمارسها الفايد في دبي. ذلك أن ناطقًا صحفيًا قال: " إن شركة " دبي للتجارة والائتمان الخصوصية المحدودة" وشركة انترناشيونال مارين سيرفيسز" تعملان في دبي بشكل غير صحيح، وقد أبلغت الدوائر الحكومية المعنية بعدم شرعية وجود تلك الشركات في الإمارات، في الوقت الذي حاولت فيه التلاعب على

القانون عبر عملية نقل ملكيتها إلى المواطنين بشكل صوري".

في هذه الأثناء – أي في عام ١٩٩٥– كان القانون قد تم تعديله في الإمارات؛ بحيث لا يكون من حق الأجنبي أن يملك كافة أسهم الشركات في الدولة، ويشترط أن تكون ملكية الإماراتيين تبلغ نسبة ٥١ %. والذي حدث من وجهة نظر دبي أن شركات الفايد قامت بهذا بشكل صوري " إن شركة دبي للتجارة والائتمان الخصوصية المحدودة أخفقت في تعديل أوضاعها وتم فقط تحويل أسهم بمبلغ نصف مليون درهم إلى مُلاك من الإمارات، بينما يبلغ رأس مال الشركة ٣ ملايين درهم. استنادًا إلى الحسابات الختامية للشركة. بل إن عملية نقل الحصص إلى مواطنين من الإمارات تمت بشكل صوري في محاولة واضحة للتلاعب والالتفاف على قانون الشركات، مما ترتب عليه أن كل الرخص الصادرة للشركة والشركات التابعة لها تعتبر غير صالحة، لتمكين هذه الشركات من العمل في الإمارات"

ليس هذا فقط، بل أيضًا: " إن شركة إنترناشيونال مارلين سيرفيسز الأجنبية المسجلة في بنما ليس لها وجود

شرعي في الدولة، لأنها لا تمتلك ترخيصًا تجاريًا خاصًا بها، لأن شركة دبي للتجارة والائتمان الخصوصية المحدودة مكنتها من العمل في الدولة عبر إضافة اسمها بدون إصدار ترخيص مستقل، وهو أمر يخالف ضرورة تسجيلها في وزارة الاقتصاد والتجارة وحصولها على ترخيص بمزاولة العمل في الإمارة المحلية التي تمارس بها نشاطها"

ولكن ما فائدة كل هذه القصة هنا؟

إن الفائدة واضحة، فعلى الرغم من أنها تكشف من جانب صراعًا من نوع خاص بين الفايد وعائلة المكتوم، إلا أنها كذلك تؤكد أن جزءًا هامًا من ثروة محمد الفايد قد تكون من العمل في دبي قبل أن يشتعل الخلاف. وهناك كانت له أعمال في مجال التجارة والعقارات والتسهيلات البحرية.. وكان لديه في كل شركة من الشركتين المذكورتين نحو ٨٠٠ موظف، أي بإجمالي ١٦٠٠ موظف.. بخلاف عقده الذي كان يدير به مركز التجارة الدولي.. سبب الخلاف الأصلي. وكبرت الخميرة..

زاد حجم الثروة .. تضخمت. وبانت بسرعة فائقة علامات التضخم حين امتلك محمد الفايد جزءًا من أسهم

شركة " لويزهو" التي يملكها تيني رولاند رجل الأعمال البريطاني الذي صار فيما بعد عدوًا أكيدًا ودائمًا لمحمد الفايد وإخوته. وقد أعطته هذه الأسهم الحق في أن يكون عضوًا في مجلس إدارة الشركة..لكنه وبعد عام واحد انفصل عن هذه الشركة بسبب خلافات مادية. .بعد أن كان ثاني أكبر مالك أسهم في الشركة بما يقدر بنحو ٤٠ مليون جنيه استرليني. في هذا العام بالتحديد، ١٩٧٥، أدرك محمد الفايد أن الثروة ليست هي كل شيء.. وأن الذكاء والخبرة والفطنة والعلاقات المتنوعة لا تكفي كي ينطلق بقوة أكبر في سماء الأعمال.. ففي هذه الفترة كان أثرياء النفط يحظون بشهرة كبيرة.. وكانت لهم كلمة مسموعة في الأسواق.. وحين تذكر أسماء العائلات الخليجية كان هذا يعني دائمًا أن المال جاهز وأن الصفقة سوف تتم – فلجأ إلى حيلة ماكرة خبيثة يمكن أن تعطيه بعضًا من قوة السمعة التي يحصل عليها أثرياء النفط.. حيلة بسيطة جدًا.. وهي إضافة حرفين إلى اسمه. حرفان فقط: ألف ولام. أي " آل" فصار الاسم الذي تستخدمه العائلة هو " آل " فايد.

من الناحية اللغوية، في العربية، لا تعني هذه الإضافة الكثير.. لأن الحرفين " آل " هما أداة نسب إلى أسرة، ومن الناحية الرسمية في مصر لم تكن هناك مشكلة.. لأن التعاملات تتم تحت اسم " فايد " ولكن من ناحية أخرى وفي أوربا فإن إضافة هذين الحرفين تعطي ثقلاً أكبر للاسم، بحيث يوحي أن أصحابه من عائلة عريقة، وممتدة ومتنوعة الشخصيات.

وقد كانت تلك نقطة هامة ومثيرة استخدمت ضد محمد الفايد في معركة هارودز، وكانت واحدًا من أبرز الاتهامات التي وجهها له تقرير وزارة التجارة والصناعة كما سوف يتضح فيما بعد بالتفصيل. لكن الأهم هنا هو أن الفايد دخل بـ " آل " هذه، وبمزيد من المال والعلاقات إلى مساحات أرحب من النفوذ والقوة.. وهكذا ظهر اسمه لأول مرة في عالم الأعمال الأوربي، وفي بداية طريق الشهرة كمشترٍ لواحد من أهم فنادق فرنسا..

كان هذا في عام ١٩٧٩، هذا العام الذي اتجه فيه محمد الفايد إلى الاستقرار التام في أوربا، حين تزوج من سيدة فنلدنية أنجب منها أربعة أطفال.. ولدين وبنتين.. إخوة

عماد من أبيه. وكان الفندق المرموق في باريس والذي يحمل اسم " ريتس " معروفًا تمامًا في فرنسا، ولكنه يعاني من خسائر جمَّة دفعت مُلاكه لأن يعرضوه للبيع. واشتراه الفايد.. فلم يتمكن من أن يحقق إنجازًا كبيرًا به.. لكنه بمضي الوقت أصبح واحدة من علامات مجده.. وصار فندقًا ناجحًا لم يزل يملكه حتى الآن.. وبعد أن مات ابنه حين خرج من عشاء به مع الأميرة ديانا في سيارة إلى حادث نفق ألما المعروف.

وعلى الرغم من كل هذا فإن محمد الفايد وخلال ٣٠ عامًا عاشها متواصلة في الخارج لم يكن يمارس أي نوع من الاستثمارات في مصر. وظل نشاط العائلة قاصرًا فقط على شركة السياحة التي لها فرع في الإسكندرية وآخر في مصر. وبخلاف شائعات عن أنه عرض ١٥ مليون جنيه لشراء فندق سان استيفانو منذ سنوات.. فإنه لا يمارس أي نشاط في مصر.. وبقى اسمه يتردد فقط بين حين وآخر حين يشتري أو يبيع بيتًا وحين تتحدث الصحف كثيرًا عن تبرعاته للمصريين.

إنه- أي الاسم - ذكر قبل سنوات حين قيل أن محمد الفايد عرض قصره للبيع. وفي رواية أخرى حين عرض أشرف مروان التوسط لبيعه لآخرين. ولكن القصر كما هو ملكٌ للفايد.. وقد ذكر الاسم حين بنت العائلة ثلاث فيللات فاخرة لنفسها في منطقة شاطئ الفردوس في العجمي.. لا يزروها محمد الفايد كثيرًا. إذ أنه لم يحضر إلى مصر منذ نحو ١٥ سنة.

وعلى جانب آخر كان اسمه يذكر بين حين وآخر حين يقدم تبرعات لبعض الناس، أقل كثيرًا، بل ولا تقارن بما كان يقدمه من تبرعات في بريطانيا – راجع فصل عملية التجميل – وفي هذا السياق أسس الفايد جمعية اسمها جمعية آل الفايد للخدمات الاجتماعية في الإسكندرية. وفي هذا السياق أيضًا ثار صلاح الفايد في أبريل ١٩٩٦ حين لم يصله خطاب من رئيس الوزراء المصري بقيمة تبرعات قدمتها الأسرة للمصريين.

وأرسل صلاح الدين على الفايد خطابًا بهذا المعنى إلى جريدة الجمهورية.. قال فيه: " في نوفمبر عام ١٩٩٤ ومن واقع إحساسنا بالمسئولية تجاه أبناء وطننا العزيز قدمنا

إغاثة عاجلة لمنكوبي السيول على طائرة خاصة وتشمل التبرعات ٥ آلاف بطانية و ٢٠٠ خيمة إيواء قيمتها مليون و٤٤٥ ألف جنيه. ومنذ إرسال التبرعات ونحن نطالب مكتب رئيس الوزراء بإعطائنا ما يثبت هذا التبرع كي نقدمه إلى مصلحة الضرائب لخصم القيمة من الضرائب المستحقة على شركتنا " دي كاسترو للسياحة " إخوان فايد. دون جدوى. إن شركتنا لها فروع في القاهرة والإسكندرية وهي تعتبر من أقدم الشركات السياحية في مصر خاصة إنها تحمل تصريحًا رقم ٥٢ من وزارة السياحة وتحمل من شركة مصر للسياحة رقم (١) ومع ذلك سبق الحجز عليها وعلى حسابات أموالها بالبنوك منذ ٣ سنوات عندما أحضرنا ألف كرسي للمعوقين و ٥٠٠ ماكينة لغسيل الكُلى تبرعًا للمرضى. ولم تقدم الدليل على أنها معدات متبرعين وليست للبيع.. وبعد أن أثبتنا التبرع.. تم رفع الحجز .. وقد استغرق ذلك عامًا كاملاً. وأضاف: في مارس ١٩٩٥ أرسلنا طائرة خاصة بـ ٥٠ قميصًا واقيًا من الرصاص بناء على طلب اللواء رءوف المناوى مدير الإدارة العامة للعلاقات العامة والإعلام بوزارة الداخلية. وقد وصلت القمصان بعد ٢٤ ساعة فقط من

طلبها.. خاصة أن اللواء المناوي أخ عزيز ولا أتأخر أبـدًا عن تلبية طلبه. ومع ذلك وحتى الآن فلم يصلني مـا يفيـد تبرعي.

وقال في نهاية الخطاب: إنني لا أطلب الشكر علـى أداء الواجب نحو وطني. ولكنني أطلب تقديم الأوراق الدالـة على التبرع إلى مصلحة الضرائب إذا تم الحجز علينا مـرة أخرى. وهنا أيضًا أريد أن أشير إلى واقعة أخرى.. وهي أنه تم الحجز علينا استنادًا إلى خطاب مـن مجهـول.. وهـو مصري يقيم في الخارج.. هذا المجهول هو للأسف الدكتور أشرف مروان الذي عين رئيسًا للجالية المصرية بـانجلترا. وقد استغل هذا المنصب وأرسل خطابًا مشابهًا إلى الضرائب في انجلترا كي تنال منا. ناسيا أن الداخل غير الخـارج.. و عندما فشل في تأليب " الضرائب الإنجليزية" حرض علينـا المجلات العربية الرخيصة التي تصدر بالخارج مستغلاً أنـه مساهم في معظمها. إنني نيابة عن إخوان " آل فايد " أطلـب من د. كمال الجنزوري رئيس الـوزراء إعطاءنـا خطابًـا موجهًا إلى مدير عام مأموريـة ضـرائب العطـارين أول

بالإسكندرية يثبت قيمة التبرعات التي قدمناها لمنكوبي السيول لخصمها من الضرائب المستحقة علينا طبقًا للقانون.

التوقيع: عن إخوان آل فايد – صلاح الدين على فايد.

إن هذا الخطاب هام للغاية. وهو يكشف عن أمور عديدة.. أبزرها الحجز على أموال الفايد في مصر. واستمرار الصراع بين أشرف مروان والعائلة. وهو يؤكد مرة أخرى أن الفايد ليس لهم أي نشاط في مصر.. سوى شركة السياحة.. فهم لم ينشئوا مصنعًا.. ولم يساهموا في شركة.. ولم يؤسسوا مشروعًا.. وبقيت الأسرة تعمل في الخارج بعيدًا عن الداخل تمامًا.

لقد كانت قد نسيت الوطن تمامًا.. على الرغم من كل هذه التبرعات.

كان الإخوة الثلاثة يشترون فندق ريتس والفنادق تباع في مصر ولا يتدخلون لتقديم أي عرض. وكانوا يشترون فندق" دوشتسر " في لندن ولا يقتربون من أي مشروع في القاهرة.. بل كان الفايد يشتري قصر " آل وندسور" ولا يقوم بأي شيء مماثل في مصر.

وقد اشترى الفايد هذا القصر الذي كان يعيش في الملك المعتزل إدوارد الثامن بعد أن ترك عرش بريطانيا

ليتزوج من مطلقة أمريكية، وأنقذ القصر من مطرقة المـــزاد العلني. قائلاً: " أنا فنان قبل أن أكون رجل أعمال.. وإنسان مثلي رأى النور في بلد جذوره الحضـــارية عميقـــة يهـــوى بطبعه العيش في الماضي" وكان هدف الفايـــد مـــن عمليـــة الشراء هذه أن يتقرب أكثر للبريطانيين، وخاص أن يخوض صراعًا محمومًا هناك من أجل الجنسية. وكان هدفنا من ذكر هذه الواقعة أن نقول ما هو حجم ثروة محمد الفايد. خاصـــة أنه حوله إلى متحف.. ولم ينس في هذه العمليـــة أن يرســـل قائمة بمحتويات المتحف إلى الملكة إليزابيث ملكـــة إنجلتـــرا كي تختار ما تشاء من التحف التي تريدها مـــن قصـــر آل وندسور.. لكن الملكة لم تختر سوى لوحة زيتية تعود إلـــى مجموعة الملك الراحل هنري الثامن.

وفي وقت آخر حققت علمية الشراء هذه غرضًا آخر دعائيًا، حين منح شيراك عمدة باريس وسامًا للفايـــد تقـــديرًا على جهوده الفنية تلك.

ولم يكن هذا القصر هو آخر قائمة الأمـــلاك. فهـــي أيضًا تضم عددًا من الطائرات واليخوت في جنوب فرنسا..

وشاليهات في سويسرا. وقصورًا في لندن. وقلعة في اسكتلندا.. وأشياء كثيرة أخرى.. كلها خارج مصر.

ولكن كل هذه الأملاك وكل هذه الأنشطة، وكل هذه الأعمال، وكل هذه المشروعات لم تلفح في أن تجيب عن السؤال السيف الذي سلط على رقاب العائلة حين دارت رحى معركة " هارودز "

٣

الثمرة المحرمة

- خُذ هذا السكين واذبحني

وكان مصدر الحملة على الفايد هـو دجال هندي شاب تحول إلى رجـل أعمال يسمع أغنياء بريطانيا كلامـه وينادونه بلقب: يا صاحب القداسة".

إنه رجل بشوش.. محمد الفايد..

هكذا يصفونه في بريطانيا. ولكنهم أيضًا يضيفون إلى هذا الوصف جزء آخر: " إنه رجل عنيد لا يتورع عن أن يخوض أعتى المعارك" والمشكلة ليست في المعركة في حد ذاتها، وإنما هي في الأسلوب الذي سوف يدير به الفايد هذه المعركة. وفي أنه لا يقبل الهزيمة. وفي أنه لن يتأخر لحظة عن توجيه بعض الضربات تحت الحزام لو أتيحت له الفرصة. وفي أنه لا ينسى ثأره.. ويبقى دائمًا في انتظار فرصة الانتقام إن المعركة معه سوف تكون قاسية.

ولكن أحدًا لم ينتبه إلى معاركه قبل عام ١٩٨٤، فقد كانت معارك صغيرة، وبعيدة عن الأضواء.. لكنه حين ظهر على المسرح أمام كل المتفرجين في العالم، بطلاً لمعركة من النوع الضخم، أدرك الجميع أن هذا الرجل ليس عاديًا.. إنه من نوع خاص.. من نسيج مختلف.

ولم يكن السبب الوحيد لهذا الاستنتاج- أنه من نسيج خاص – هو فقط الأسلوب الذي اتبعه محمد الفايد كي يفوز بمعركته تلك.. وإنما هو أيضًا في هدف المعركة التي يصارع فيها. فقد كان هذا الهدف محط أنظار العالم.. وليس

أنظار بريطانيا فحسب.. هذا الهدف كان هو محلات " هارودز " درة المحلات في بريطانيا.. وعلامة لندن المرموقة.. وشارتها العريقة. التي بدا أنه من الصعب على البريطانيين أن يقبلوا بفوز أجنبي بها.. فهي بالنسبة لهم الأهرام.. أو برج إيفل.. إنها ثمرة محرمة.. لا يجوز لأي شخص من خارج الجنة الإنجليزية أن يقطفها.

وعلى قدر قيمة الثمرة كانت قسوة المعركة.. وكانت جولاتها المتعددة.. وكانت الأساليب والأسلحة العديدة التي استخدمت فيها وكانت المدة الطويلة جدًا التي استمرت خلالها.. إذا امتدت إلى نحو ثماني سنوات كاملة.

إنها معركة لم تقف عند حد.. واتسعت جغرافيًا من لندن إلى الإسكندرية. ومن قصر السلطان الفخيم في برواناي إلى مصلحة الأحوال المدنية بكل تكدس الأوراق فيها بالقاهرة. ومن الولايات المتحدة إلى إمارة " ليخشتاين".. ومن البنوك إلى كبرى الشركات.. ومن رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر وابنها مارك.. إلى أشرف مروان رجل الأعمال المصري وصهر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

لقد كانت معركة متعددة المسارح والأبطال.

وعلى قدر ذكاء كافة أطرافها خاصة محمد الفايد على قدر ما كان غباء الطرف المواجه له فيها.. تيني رولاند.. الرجل الذي حارب محمد الفايد سنوات طويلة كي يعيد من بين يديه هذه الثمرة المحرمة.

" وتيني" هو اسم الشهرة – أو الدلع للدقة. وهو يعني الرجل المتناهي في الصغر. لكن الواقع يؤكد أن " تيني" لم يكن رجل أعمال صغيرًا.. وإنما حوت كبير، له خصائص أفيال الأسواق، وصفات تماسيح بحيرات الأعمال، وسمات أباطرة المال.. وتلك هي المميزات التي خاض بها المعركة فعلاً قبل أن يظهر محمد الفايد على المسرح.. حين دفعه هو إلى الساحة وأعطاه سكينًا وقال له: اذبحني.. ثم راح يصرخ بعد ذلك محاولاً خطف السكين أو على الأقل النجاة منه.

كان " تيني" وحيدًا تمامًا في السباق من أجل ثمرة " هارودز ". ذلك أن كثيرًا من المنافسين هربوا بعد أول لكمة حين حاولوا الحصول على هذه الثمرة المحرمة. ومن بين هؤلاء المليونير الأمريكي دانيا لودفيك الذي كان يسعى في هذا الاتجاه.. لكنه بمجرد أن وضع ساقيه في بحيرة

الصراع.. أدرك أنه نزل إلى مستنقع.. تغطيه الأحراش وتلعب في قاعة التماسيح والثعابين.. وتيقن أنه بأدواته سوف يخسر أكثر مما يكسب.. ففر بجلده.. وبقى تيني رولاند وحده.. ينتظر أن تهوى الثمرة وحدها في حجره حين تنضج، لا سيما أن حجره هذا متسع تمامًا.. فهو يملك ٣٠% من أسهم شركة " هاوس أوف فريزر " المالكة لمحلات هارودز.

في هذه الأثناء كان " تيني" خارجًا لتوه من معركة فائزًا. فبعد أن استمرت وزارة التجارة البريطانية تحقق لأكثر من خمس سنوات في مخالفات شركته " لونرو" أغلق الملف وقررت الوزارة ألا تتخذ ضدها أي إجراء.. وفي نفس الوقت تمكن " تيني" من أن يحتل مقعد نائب رئيس مجلس الإدارة في شركة " هاوس أوف فريزر" مدعومًا بأسهمه العديدة.. وهو منصب جعله حاكمًا بأمره في شئون الشركة في ضوء معاناة رئيس مجلس إدارتها السير " هيو فرايزر" من أزمات شخصية، جعلته ألعوبة في أيدي " تيني"

إن الثمرة كانت تقول له " خذني" لكنه أبي واستكبر. ورفض إلا أن تأتي هي إليه.. ليس فقط لأنه أرادها بأقل قدر

من المجهود.. ولكن أيضًا لأنه كان ينبغي عليه كي يأخذها أن يدفع مبلغًا هائلاً من المال.. وهو كان لتوه قد وضع مائة مليون جنيه استرليني في استثمار آخر.. بينما أرباح مجموعته " لونرو" لا تزيد على ٩٠ مليون جنيه استرليني في السنة. وحسب ما جاء في كتاب " الاستملاك " أو Takeovers للصحفيين إيفان فالون وجيمس سرودز، فإن " تيني" آثر أن يلجأ إلى حرب العصابات مع هارودز، بدلاً من أن يلجأ إلى الحرب الشاملة. وكان هدفه هو أن يستغل منصبه ونصيبه في الأسهم في اتجاه الضغط على أعضاء مجلس الإدارة... خاصة الذين يناوئونه.. لإصدار قرارات تصب في جيب مصالحه.. وتجرد أعداءه من أسلحتهم.

لكن الحسابات في مرحلة الحصاد خالفت ما كان يتوقعه تيني حين زرع. بمعنى آخر فإنه كان يزرع الأرض قمحا فإعطته شوكًا. وكانت النتيجة هي أن تماديه في حرب الاستنزاف خلق شعورًا من عدم الثقة بينه وبين أغلبية أعضاء مجلس إدارة الشركة. وكان من نتيجة هذا أن اتجه هيو فرايزر رئيس مجلس الإدارة إلى معسكر أعدائه.. لاسيما أن " فرايزر" هذا من عائلة اسكتلندية، لم تكن ترغب

في أن تخرج الشركة من نطاق نفوذها. وخاصة أن والـــدة " هيو فرايرز" ضغطت على ابنها في نفس الاتجاه وبكل مالها من سطوة عليه. ودارت معركة سميت في ذلك الوقت فـــي الصحف البريطانية " بالحرب القذرة" .. خاصة أن " تينـــي رولاند" لجأ إلى أسلوبه المعروف في التشـــهير بعـــدد مـــن الشخصيات المرموقة في ميادين المال والسياســـة والتجـــارة والتي يمكن أن تكون قد لعبت دورًا فـــي المعركـــة.. لكـــن الحرب انتهت في هذه الجولة بخسارة فادحة لتينـــي رولانـــد الذي نحى تمامًا عن موقعه كنائب لـــرئيس مجلـــس الإدارة، وعين بديل له يضمن استمرار سيطرة عائلة فرايـــزر علـــى المؤسسة.

الذين كانوا يتابعون ما يدور قالوا وقتها أن " تينـــي" خسر " هارودز" إلى الأبد. لكنه كان قد قـــرر أن يخـــوض المعركة حتى آخر نفس. ولف ودار وجمع وطرح. ثم أعلن أمام مجلس الإدارة والعالم كله في عام ١٩٨١ إنه يريد شراء المؤسسة بـــ ٢٣٠ مليون جنيه استرليني.

لقد بدا هذا العرض كضربة قاضية، لاسيما أن السعر الذي قدمه "تيني" وهو ١,٥ جنيه للسهم، يزيد علـــى الســـعر

الرسمي المعلن بكثير ومن هنا لم يكن في استطاعة مجلس الإدارة أن يرفض العرض. إلا أنه – أي مجلس الإدارة– قرر أن يلجأ لأسلوب آخر.. يؤجل به موعد قطف رولاند للثمرة المحرمة. فأحيل عرض رولاند الذي قدمه من خلال شركة " لونرو" إلى " لجنة مكافحة الاحتكار" وكان الهدف هو شراء الوقت من أجل البحث عن مخرج.

هذه اللجنة قررت أولا تجميد عرض " تيني" ثم بعد عشرة أشهر من الدراسة فوجئ الجميع بها تقرر نتيجة واضحة.. وهي " أن الموافقة على هذا العرض تخل بالمصلحة العامة".. وبالتالي رفض العرض.. وفوق كل هذا تم اتخاذ قرار بأن يفرض على " تيني رولاند" ألا يزيد على حصته المملوكة له بالفعل في المؤسسة وهي ٢٩,٩% من الأسهم.

لقد كان القرار الأخير صدمة. بل هوجم حتى من أعداء تيني رولاند نفسه. إلا أنه في النهاية جرد " الرجل المتناهي في الصغر" من أسلحته.. وأبقاه محاصرًا.. وفتح الباب لظهور محمد الفايد على مسرح الأحداث.

كان محمد الفايد يعرف تيني رولاند بالطبع. ففي عام ١٩٧٥ كان محمد الفايد قد اشترى ٢٠% من أسهم شركة " كوستين" التي تتبع شركة " لونرو" والتي كان تيني وقتها هو مديرها التنفيذي. لكن خلافًا ماليًا بين الاثنين أدى في النهاية إلى خروج الفايد وبيع حصته في الشركة.ونشوء قطيعة بين الطرفين استمرت عدة سنوات. لكن محمد الفايد هو الذي كسر حاجز هذه القطيعة في عام ١٩٨٢.. فبعد أن اشترى فندق " ريتس" في باريس بـ ٩ ملايين جنيه إسترليني وأنفق مع إخوته خلال ثلاث سنوات مبلغًا مماثلاً على إعادة تجديده.. قرر الفايد أن يطبع أجندات للدعاية باسم الفندق، بماء الذهب، ويرسلها إلى زبائن الفندق على سبيل الدعاية، وكان أصل وصلت واحدة من هذه الهدايا إلى تيني رولاند.. وكان أن اتصل تيني بالفايد يشكره.. وعادت المياه إلى مجاريها.. وبل تدعمت العلاقات بين رجل الأعمال الطموح الذي يبحث عن الجنسية البريطانية وهو الآتي من أصل مصري ورجل الأعمال الذي حصل بالفعل على الجنسية البريطانية وهو من أصل ألماني.

في غضون هذا كانت الأوضاع في " هاوس أوفر فرايزر" تتطور إذا تمت تنحية السير هبو فرايزر عن موقعه كرئيس لمجلس الإدارة، وحل مكانه رونالد سميث، ورفض حاملو الأسهم خطة تقدمت بها شركة تيني رولاند لتعويم محلات هارودز بعيدًا عن هاوس أوف فرايزر.. أي فصل هذه عن تلك.. وفشلت خطة جديدة من "تيني" لإدخال مجموعة من المديرين يمثلون شركته في شركة " هاوس أوفر فرايزر" وهنا قرر " تيني" الالتفاف على كل هذه الخطط وعلى قرار لجنة مكافحة الاحتكارات عبر صديقه " المجدد" محمد الفايد.

كان ليل لندن باردا للغاية في مساء يوم ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤ حين اجتمع تيني رولاند مع محمد الفايد في مكتبه بمنطقة " بارك لايز" الراقية. وفاجأ " تيني" مضيفة بعرض مغر: " لماذا لا تشتري أسهمي في شركة هاوس أوفر فرايزر!" وسأل الفايد عن الثمن. فطلب تيني ١٣٨ مليون جنيه استرليني أي بسعر ٣ جنيهات للسهم. وهو ما يعني أنه إذا وافق الفايد فإن تيني يكون قد حقق من هذه الأسهم أرباحًا تصل إلى مائة بالمائة.

وكان كل من الاثنين يفكر في طريق هدفه ضد الآخر تمامًا. فمن ناحية كان هدف "تيني" هو أن يبتعد بأسهمه عن عيون لجنة الاحتكار. بحيث يشتري الفايد.. ويرفع نسبة الأسهم..ثم يعيدها إلى تيني. وكان هدف الفايد هو أن يشتري بالفعل.. فمن ذا الذي يرفض امتلاك نصيب في هذه الشركة التي تملك محلات هارودز إذا كان يملك المال.

وخرج تيني رولاند من مكتب محمد الفايد وقد اتفق معه على أن يدبر قيمة الصفقة في خلال ٤٨ ساعة لكن الفايد الذي أخذ السكين من يد تيني سارع وأعطى أمرًا للبنك الذي يتعامل معه. بنك "كلاينويرت بتسون" .. وتم تجهيز المال في خلال ٢٤ ساعة فقط. ولم ينتبه تيني رولاند إلى هذه السرعة، خاصة أن الاتفاق الذي بينهما كان قد تم في سرية وبعيدًا عن أية أضواء.

وظهرت نوايا محمد الفايد بسرعة أكبر، وبشكل لم يكن يتوقعه تيني رولاند الذي بنى حساباته على أن محمد الفايد ليس لديه من المال ما يكفي لكي يحول دفة المعركة في

ناحيته.. ومما زاد من عوامل اطمئنانه أنه اعتقد أن مجلس الإدارة لن يوافق أبدًا على أن تباع الشركة لمواطن أجنبي.

وأطلق الفايد الطلقة الأولى. وطلب حقه في أن يحتل موقع تيني رولاند في مجلس الإدارة. وأن يحتل أخوه على موقع مساعد تيني وفوجئ تيني رولاند بهذه الخطوة. وأعلن في الصحف أنه يرغب في شراء أسهم الشركة من السوق كي يحافظ على موقعه في المجلس.

وفي خلال أسبوع واحد كان قد دفع ٢١ مليون جنيه استرليني لشراء ٤,٥% من أسهم الشركة. وخلال أسابيع كان قد بدأ يزيد من حصته مرة تلو الأخرى.. بينما كان محمد الفايد متفرغًا لتوطيد علاقاته مع أعضاء مجلس الإدارة الذين تصوروا لأول وهلة أنه ليس إلا واجهة تتحرك في اتجاه تحقيق مصالح تيني رولاند. وإعادته إلى المؤسسة بشكل غير مباشر أقوى مما كان.

ولم ينتبه تيني رولاند إلى أن كل هذا التصعيد الذي يحدث يخدم مصالح محمد الفايد.. ويزيد من حدة السكين الذي صار بين يديه. فبعد أن نجح محمد الفايد وأخوه على في إبعاد تيني رولاند ومساعده عن مقعديهما في مجلس

الإدارة كان الفايد قد أعلن بالفعل في بداية عام ١٩٨٥ عرضًا كاملاً لشراء مؤسسة " هاوس أوفر فرايزر" مقابل ٦١٥ مليون جنيه استرليني، أي ما يزيد على المليار دولار بأسعار هذا الوقت.

وقد خدمت الظروف وتيني رولاند عرض الفايد.. فجعلته مقبولاً.. ويحظي بالموافقة.. لعدة أسباب.

ففي مجلس الإدارة كانت هناك موافقة لأن الأعضاء تأكدوا تمامًا من أن ما يحدث ليس تمثيلية، وأن دخول الفايد إلى المؤسسة يعني خروج تيني منها نهائيًا. وفي الأوساط المالية والتجارية كان هناك كثيرون يحبذون هذا العرض لأن معركة " هاوس أوف فرايزر" قد سببت لهم صداعًا استمر وقتا طويلاً. بل إن هناك من كان يمكن أن يوافق على أن يحصل تيني رولاند نفسه على هذه الصفقة رغم قرار لجنة مكافحة الاحتكارات إذا كان هذا يؤدي في النهاية إلى إيقاف كل هذا الضجيج. ومن جانب آخر كانت الحكومة ترحب هي أيضًا بعرض الفايد.. لأنه تقدم لشراء المجموعة كلها، بمبلغ كبير، في وقت اشتدت فيه أزمة الجنية الاسترليني وهو ما يعني أن قبول العرض سوف يؤدي إلى تقوية مركز الجنيه..

فضلاً عن أن الحكومة ذاتها تريد ساحة هادئة وخاصة أنها مقبلة على انتخابات عامة بعد سنة واحدة.

وثار تيني وهاج. وتقدمت الشركة التي يملكها " لونرو" بطلب تحويل عرض الفايد إلى لجنة مكافحة الاحتكارات. كما حدث من قبل مع العرض الذي تقدمت به شركته. وطلب وزير التجارة في ذلك الوقت نورمان تيبت فرصة أسبوع كي يأخذ قرارًا في القضية. وكان معنى هذه الفرصة في عالم المال الذي للوقت فيه قيمة كبرى أن الوزير يعطي محمد الفايد ضوءًا أخضر كي يتحرك بسرعة. وهو ما انتبه له الفايد فعلاً.. ونزل إلى السوق بكل قوته ورفع حصته في الأسهم خلال أسبوع إلى ٥٠%.

المثير أن تيني رولاند الذي بدا وكأنه متأكد من رفض عرض الفايد باع نسبته خلال هذا الأسبوع للفايد نفسه. وتخلى عن ٤,٥% من الأسهم. وهو ما يعني أن شركته كانت صاحبة الفضل الأكبر في فوز الملياردير السكندري بالصفقة.. ومنحه فوق السكين الأول سكيناً آخر.. وبدا وكأن كل أسلحة الفايد قد خرجت في نعومة من ترسانة تيني رولاند لتوجه إلى صدره مرة أخرى.

هل تورط تيني في هذا الوضع بسبب الغباء؟ .. ربما.. هل بسبب الغرور والثقة الزائدة؟.. ربما.. هل بسبب معلومات خاطئة وتوقعات غير صائبة عن ثروة الفايد؟.. ربما وربما كانت كل هذه الأسباب مجتمعة.. أيضًا.

المهم أن الثمرة المحرمة صارت في معدة محمد الفايد... وليست في يده فقط.

والمهم أيضًا أن تيني رولاند قد دخل المعركة من جديد بحثًا عن هذه الثمرة التي ضاعت. وبدأ حملة شعواء وعشواء في كل اتجاه.. هدفها الوحيد إثبات أن هذا المال الذي تم دفعه ثمنًا للمؤسسة ليس ملكًا للفايد.. وإنما ملك لسلطان بروناي الذي يعمل الفايد معه..

هذا الإدعاء الذي أطلقه تيني رولاند لو صح كان كافيا لأن يقضي على كل أحلام الفايد في الصفقة – بل على مستقبله في الأسواق البريطانية. ومن هنا فإنه دخل المعركة بكل قوته، ليس فقط لأنه يريد هارودز، ولكن كذلك لأنه يريد الحفاظ على نفسه.. ويمكن تقدير حجم الخسائر التي كان يمكن أن يعاني منها الفايد في المستقبل لو أنه خرج من هذه المعركة مهزومًا، إذا قارنا ذلك بما يعانيه هو حتى الآن على

الرغم من انتهاء المعركة وخروجه منها منتصرًا.. " راجع فصل عملية التجميل" ومن المؤكد أن تيني رولاند كان يدرك ذلك، وخاض الصراع بكل قوته وبكل ما لديه من أسلحة.. وبناء على الفرضية التي أعلنها في البداية، راح يحاول البحث عن دليل، أي إثبات أن هذا ليس هو مال الفايد.. خاصة أن غريمة كان قد خرج لتوه من صفقة مشابهة قام فيها بدور " الستار" لسلطان براونای.. صفقة فندق " دوشتسر".. " راجع أيضًا فصل الرجل الخفي"

وقدم محمد الفايد من خلال مستشاره المالي " كلينورت بنش" ملفًا كاملاً حول موقفه المالي الذي يسمح له بشراء " هاوس أوف فرايزر" بطريقة قانونية وسليمة. وتحدث الملف عن أن " عائلة الفايد من كبار مالكي السفن في التجارة البحرية" وقالت الأوراق التي قدمت إلى مكتب تجارة البائع والمنتج" أو. إف. تي" أن شركة الفايد البريطانية " جينافكو" مستقرة تمامًا. وأن العائلة المصرية تملك الأصول التابعة لشركة " بلازا روكفلر" الشهيرة جدًا في نيويورك.

وعلى الرغم من أنه اتضح فيما بعد أن عديدًا من هذه المعلومات لم يكن سليمًا إلى حد بعيد، إلا أن الصفقة

تمت. وبعد أن قرر وزير التجارة في مارس ١٩٨٥ أنـــه لا يوجد في ملف الصفقة ما يدعو إلى إحالة الموضوع إلـــى " لجنة مكافحة الاحتكارات" ... جاء وزير تجارة تـــال هـــو " ليون بريتان" في نوفمبر ١٩٨٥ يرفض التماسًا قدمه " تينـــي رولاند" على أوراق شركة " لونرو" يطلب فيه إعادة النظـــر في بيع " هاوس أوف فرايزر" للفايد.

كان من الواضح أن هناك أطرافًـــا حكوميـــة تريـــد للصفقة أن تتم بأي شكل.. وقد حدث هذا.

ومن هنا جن جنون تيني رولاند. فقد بـــدا الجميـــع أمامه وكأنهم اتحدوا ضده.. إذ كيف يقبل قبل عـــدة أشـــهر الاتهام بالاحتكار حين حاول هو شراء المجموعة ويـــرفض الآن اتهام من نفس النوع يوجهه هو إلى الفايـــد. وكـــان أن تخطت اتهاماته سقف سلطان برونـاي. وكان أن شن هجمـــة شرسة على رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر مستغلاً الحملة التي تشنها الصحافة ضدها على ابنها مارك.. وراح يؤكد أن رئيسة الوزراء متواطئة لأن هناك مصالح مشتركة بين ابنها وبين محمد الفايد.. والدليل هو رحلة سرية قام بهـــا مـــارك تاتشر على طائرة محمد الفايد الخاصة إلى سلطنة برونـاي..

ثم وفى مرحلة أخرى أقحم اسم الرئيس حسني مبارك وقال أنه حين اجتمع مع رئيسه الوزراء البريطانية في منتصف الثمانينيات تباحثًا في شأن الصفقة وأن الرئيس دعم موقف الفايد على حسب ادعاء صحيفة الأوبزرفر.. ولم يكن هذا صحيحًا.

واستخدم تيني كل الوسائل الممكنة لإنجاح حملته.

ففي عديد من المرات كانت تصل إلى مكتب مدير أحد البنوك التي دعمت صفقة محمد الفايد باقة زهور صفراء، ومعها كارت بدون توقيع كتب عليه: " أيها الجبان" ..

بل لجأ تيني رولاند إلى الاستعانة برجل أعمال هندي شاب، يطلق على نفسه اسم " سوامي" أي المرشد، بينما اسمه الحقيقي هو شاندرا ماهاراج، اتضح أنه بدأ حياته منجمًا، ذاعت شهرته بين عناصر الطبقة الثرية البريطانية، حتى أنه صار مرشدًا روحيًا لعدد من الشخصيات، فصار ينادي باسم "صاحب القداسة".. وكشفت صحف بريطانية عن انه كان يتلقى أموالاً طائلة من تيني رولاند كي يمده بمعلومات عن الفايد ومارك تاتشر وسلطان بروناي.

ووصل الأمر لدى تيني رولاند حد أنه كان مستعدًا لأن يدفع أي مبلغ مقابل أن يمده أحد بأي شيء عن الفايد يدعم حملته، بل عرض مبالغ طائلة لمن يمكن أن يدله على أرقام حسابات سرية يقول هو أن محمد الفايد يملكها في إمارة ليخشتاين، وعرض مبالغ طائلة أخرى لمن يستطيع أن يقوم بتسجيل المكالمات التليفونية للفايد في بيته ومكتبه " راجع فصل الطفل المدلل"

ووصل نطاق الحملة إلى حد اتهام المشترين المصريين بأنهما يعاديان السامية، وقد سخرت صحيفة توداي تايمز من هذا قائلة لليهود: تذكر عند زيارتك المقبلة إلى لندن أن صاحب هارودز يكره اليهود، لكنه لا يعترض على تسوقهم من محلاته فالمكسب مكسب على أي حال"

وقد كانت أداة تيني رولاند القوية في هذه الحملة هي الإعلام، خاصة الصحيفة التي يملكها، وهي صحيفة " الأوبزرفر" المعروفة.. فقد جعلها تتخلى عن وقارها.. ودفعها إلى نشر شائعات عن أصول عائلة الفايد ومصادر ثروتهم.. ولكن الحملة سرعان ما توقفت بعد أن دفع الفايد

جيش محاميه إلى جرجرة " ألأوبزرفر" في المحاكم لتبرئ نفسها من اتهامات التشهير.

ولكن صاحب الصحيفة أصر على إقحام الصحيفة في الحملة.. وتبرم الصحفيون.. فحاولت إدارة الجريدة إقناعهم بأن الحملة على محمد الفايد سوف تبقى قاصرة على الصفحات الاقتصادية التي لا يقرأها سوى عدد قليل من الناس.

وفي نهاية عام ١٩٨٥ تخيل الصحفيون في "الأوبزرفر" أن الحملة على الفايد قد لفظت أنفاسها، لأنه لم يعد لدى تيني رولاند شيء جديد يمكن أن يقوله.. سواء كان صادقًا أو باطلاً.. لكن تيني الذي عاد في عام ١٩٨٦ من عطلة رأس السنة التي قضاها على شاطئ " أكابولكو" في المكسيك سرعان ما استأنف حملته ضد الفايد واستخدم الأوبزرفر من جديد.

وفي البداية أرسل إلى وزارة الصناعة كتابًا مسجلاً يتهم فيه رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر بالانحياز السياسي.. ويقول أنها "على صلة بالفايد" وأنها " سمحت لمؤسسة بريطانية بالوقوع في أيد أجنبية غير موثوق فيها

ولا تتمتع بالخبرة التجارية الكافية" ثم أرسل تيني رولاند عدة خطابات متتالية إلى مارجريت تاتشر نفسها يطالبها فيها " بتصحيح هذا الخطأ الجسيم". لكن هذه الرسائل لم تتلق أي رد.. فكان رد فعل تيني رولاند هو أن يشن حملة جديدة ضد الفايد وتاتشر نفسها.

وكان أن أعاد تيني قصة مارك تاتشر والفايد وسلطان براوناي.. فاعترض الصحفيون في الأوبزرفر. وحاولت الإدارة إقناعهم. لكنها فشلت.. فالقصة بلا مصادر. ورولاند لا يريد حتى نشر تعقيب عليها من الفايد أو من مارك تاتشر.. وكان أن أملي هو القصة على رئيس التحرير.. فنشرها في الصفحة الأولى.. وكانت النتيجة هي أن "الأوبزرفر" دفعت تعويضًا قدره خمسة ملايين دولار.

والتزمت مارجريت تاتشر الصمت. وهو اختيار التزمت به من قبل حين زعمت " الأوبزرفر" نفسها أن ابنها حصل على عقد من سلطنة عمان بعد أن زارتها مارجريت تاتشر نفسها. وهو ما يعني اتهامًا بأن تاتشر تعمل لصالح ابنها.

وكان أن نجح الفايد في كسب تاتشر إلى جانب صفه حين استجاب فورًا لطلب قدمته إليه بدعم الجنيه الاسترليني.. فأقنع الفايد سلطان بروناي بأن يقوم بعدة إجراءات تحقق هذا الغرض.. ونجح الملياردير المصري في كسب نقطة جديدة. لكنه في نفس العام خسر نقطة أخرى حين قررت محكمة بريطانية رفض طلبه بإيقاف الأوبزرفر عن نشر الاتهامات ضده.

حتى هذه اللحظة كان الصراع القضائي بين الجانبين قد بدأ يكلف خزانة كل من الفايد وتيني رولاند أرقامًا فلكية.. ففي عام ١٩٨٥ وحده دفع الفايد للمحامين ٣ ملايين جنيه استرليني. وهو مبلغ قال هو عنه" إنه باهظ بما فيه الكفاية، لكنه يعتبر ثمنًا صغيرًا لإعداد الذخيرة في هذا الصراع المالي الضاري الذي لم يحدث مثله في التاريخ" وفي المقابل كان قد دفع تيني نحو ١١ مليون جنيه استرليني من ميزانية شركة " لونرو" لكي تستمر المعركة.. وهي تكاليف لم تكن قاصرة فقط على القضايا.. لكنه رغم هذا خسر في عام ١٩٨٧ طلبًا تقدم به إلى المحكمة العليا كي تدفع وزير الصناعة، لأن يعيد النظر في شراء الفايد لمحلات هارودز.

وحين فشل الاحتكام إلى السياسة والسياسيين وإلى أحكام القضاء.. كان الحل مرة أخرى هو الإعلام.. ولكن تيني لجأ هذه المرة إلى التليفزيون. وكان الضربة قوية وموجعة.. لمحمد الفايد.. ففي منتصف عام ١٩٨٨ تمكن تيني من أن يدفع جون بلندر الصحفي الاقتصادي البريطاني المرموق إلى أن يقدم برنامجًا في القناة الرابعة البريطانية تحت عنوان " إمبراطورية الفايد تحت الفحص". كانت نتيجته التي يريد الترويج لها هي أن " أعمال الفايد طيلة حياته لم تكن لتثمر الأموال الكافية لشراء هاوس أوف فرايزر، التي تبلغ قيمتها عدة بلايين من الدولارات..

في هذا البرنامج واجه الفايد اتهامات تقول أنه بالغ في حديثه عن الأصول التي وردت في ملفه حول تاريخه وثروته. فقال: إن الفايد لم يكن يملك سوى عبارتين.. وأن شركته في بريطانيا حين تمت صفقة هاوس أوفر فرايزر كانت تسجل خسائر عديدة خلال ثلاث سنوات وحين حققت أرباحًا لم تكسب سوى خمسمائة ألف جنيه استرليني في عامين. وقال أن عائلة الفايد لا تملك بلازا روكفلر في نيويورك وإنما هي استأجرته، وأن من حق مؤسسة "

ونركويو نيكاشين" أن تشتريها بين عامي٢٩و ١٩٩١. وقال أيضًا إن فندق ريتس الذي تملكه الأسرة في باريس لم يحقق أرباحًا تساوي ثمن الصفقة.. أو حتى ما يقترب منهـا. وأن الفايد لم يكن سوى بائع كوكاكولا وماكينـات خياطـة فـي الإسكندرية.

وتألم الفايد من هذه الضربة.. فراح يدافع عن نفسه.. وبينما كان يفعل هذا راح أيضًا يهاجم مقدم البرنـامج الـذي كتب مقالاً بمضمون برنامجه في جريدة فاينانشـيال تـايمز الاقتصادية المعروفة.

لقد قال الفايد أنه كان يملك فعلاً عبارتين، ولكن عبد الناصر، الزعيم الراحل أمم أملاكه. وتحدث عن أعماله فـي دبي.. وزعم أن جون بلندر قابل مسئولين في شركات مثل " كوستين" و " برنارد صلى" للإنشاءات وقالوا لـه عبـارات لصالحه لكنه لم يذع هذه المقابلات، وقال إنه اقترض كثيـرًا حين أصبحت مجموعة هاوس أوف فرايزر تحـت إدارتـه. واعترف مستشاره القانوني "ريستون ويب" بأن العائلة تخفي أي معلومة يمكن أن تساهم فـي تخفـيض الضـرائب. لأن

الشركة أسرية وليست مطالبة بأن تقدم معلومات عن النشاط إلى حملة الأسهم.

وحقق تيني رولاند رغم كل دفاع الفايد هذا ما هو أكثر قيمة من المال. لقد كسب الرأي العام. خاصة أن البرنامج تضمن مشاهد من حواري الإسكندرية.. مشاهد للأماكن الفقيرة والمعدمة التي جاء منها الفايد.. وهو ما استفز مشاعر البريطانيين.. إذ كيف لهذا الرجل الأجنبي المعدم أن يقتحم مجتمعهم، ويحصل على رمزهم التجاري وهو من أصول فقيرة.

لقد كان البرنامج نقطة تحول.

فبعد أسابيع أعلن اللورد يونج وزير التجارة البريطاني تعيين خبيرين لدراسة صفقة " هاوس أوف فرايزر" الخبيران كوَّنا لجنة وقلَّبا في كل الأوراق.. وسافرا إلى أماكن مختلفة وعديدة.. بل وصلا حتى إلى نادي اسبورتنج في الإسكندرية حيث قلبت الدفاتر وبحث في أصول عضوية أبناء الفايد في النادي.. وحين كان من الصعب عليهم لقاء أحد بسبب مخاوف من استثارة مشاعر السيادة المصرية – كما حدث في حالة وصول ضباط من

البوليس البريطاني لتقصِّي تاريخ الفايد – كان الخبيران يقابلان من يريدان من الشهود في مقر السفارة البريطانية في القاهرة أو في القنصلية البريطانية في الإسكندرية.

واستمر عمل الخبيرين ١٥ شهرًا، وتكلف عملهما هذا نحو مليون جنيه استرليني.. وكانت النتيجة هي ملف كامل يتضمن ٧٥٠ صفحة من الحقائق التي قال الخبيران أنها صحيحة عن محمد الفايد وأخويه.. لكن التقرير ظل جاثمًا فوق مكتب وزير التجارة حتى يحين الظرف السياسي المناسب.. وفي نفس الوقت تم اتخاذ قرار مزدوج ضد الفايد حتى تتلافى الحكومة مزيدًا من الإزعاج الذي يسببه لها تيني رولاند.

وكان الجزء الأول من هذا القرار هو إحالة ملف الصفقة إلى مكتب مكافحة الاحتيالات المالية الخطيرة " S.F.O" وكان جزؤه الثاني هو إحالة نفس الملف إلى " لجنة الاندماج والاحتكار"

في هذا الوقت فسر هذا القرار المزدوج بوضوح. فهو من ناحية يعني أن القضاء قد دخل إلى ساحة المعركة بقرار حكومي حين تقرر أن تنظر لجنة " S.F.O" في شأن

الصفقة. وهو ما يعني أن ثبوت حدوث مخالفات، خاصة من جانب البنك الذي دعم الفايد، سوف تكون نتيجتـــه أحكامًـــا بالحبس والغرامة. ومن ناحية أخرى فـــإن لجنـــة مكافحـــة الاحتكارات يمكن أن تدفع آل الفايد إلى التخلي عن ملكيـــتهم في مؤسسة هاوس أوف فرايزر تحت بند حماية المصـــلحة العامة، وإعادة هذه الملكية في الأسواق أو الاحتفاظ بها حتى يظهر مشتر آخر.

وعلى الرغم من أن محمد الفايد بدا في هذه اللحظات مرعوبًا خاصة حين اعترف بأن هناك مبالغات فـــي أوراق ملفه سببها محاولة مؤسسة العلاقات العامة التي تعمـــل لـــه، تحسين صورته بأي شكل.. إلا أن من تابع هذه القصة فـــي تلك الفترة رأى أن الحكومة إنما اتخذت هذا القـــرار كـــي" تلهى" النقاد والخصوم السياسيين بعيدًا عنها.. ولفتـــرة مـــن الوقت.. يكون خلالها المؤتمر السنوي لحزب المحافظين قـــد انتهى بسلام. خاصة أن " لجنة مكافحة الاحتكار" أعلنت أنها لن تصدر قرارها في وقت قريب.

في هذه الأثناء وضع الفايد يده على قلبه.

إذ لم يتوقف الأمر على هذا القرار المزدوج فقط. وإنما امتد أيضًا إلى أن المحكمة العليا البريطانية أصدرت قرارًا يلزم وزير التجارة اللورد يونج بأن ينشر نتائج التحقيق الذي أجرته اللجنة الثنائية، خاصة بعد أن مضت المدة القانونية المقررة لاحتفاظه بالتقرير.. وهي ستة أشهر.

لكن الوزير الذي كان يدرك أن التقرير به فضائح استأنف الحكم. وبدوره لملم الفايد نفسه وهدد بأنه لو أذعن الوزير إلى قرار المحكمة سوف يرفع قضية ضد الوزير نفسه.. ثم عاد بعد أن ضرب ضربته الأولى وقرر أن يحيد الوزير وقال إنه من جانب آخر سوف يتضامن مع الوزير ويرفع طلبًا لاستئناف حكم المحكمة العليا.

في غضون أسابيع قليلة كان الحكم التالي قد صدر. ووقف ثلاثة من القضاة في محكمة الاستئناف في لندن بالقاعة رقم (١) أمام عشرات من الصحفيين الذين لم يجد العديدون منهم موضعًا لأقدامهم.. وتلوا الحكم: " إننا نؤيد اعتراض وزير التجارة اللورد يونج على قرار المحكمة العليا بالتزامه بنشر التقرير. ذلك أن هذا أمر يعود إلى الوزارة نفسها.. ونحن نوافق على الطلب المقدم من وزارة

التجارة بإلزام تيني رولاند – المدعي في القضية الأولى– بمصروفات القضية".

وفي مكتبة بالدور السادس في محلات هارودز وقف محمد الفايد يفرك يديه فرحًا بالفوز الجديد.. ويتلقى التهاني من أخويه على وصلاح.. وبينما كانت تنهال اتصالات الأصدقاء والصحفيين.. بين مهنئ وطالب للاستفسار.. كان أن تلقوا خبرًا يؤكد أن الصراع لم ينته بعد.. وأن الفوز الكامل لم يحدث حتى الآن.. فقد أعلن تيني رولاند أنه سوف يصل بالقضية إلى هيئة قضائية أعلى.. إلى مجلس اللوردات.

ولم تخل جعبة تيني رولاند من ضربات أخرى موجعة للفايد.

فبينما كان الملياردير المصري يقف أمام قسم اللحوم في محلات هارودز وقد وضع على صدره مريلة بيضاء، وغطى رأسه ببرنيطة من نفس اللون، يتقمص دور الجزار، ويبيع اللحوم للزبائن أمام مصوري الصحف.. كانت الأسواق تتلقف كتابًا جديدًا، اعتبر جزءًا من الحملة ضد الفايد..

هذا الكتاب، الذي خشيَ مؤلفه وناشـــره أن يضـــعا اسميهما عليه، وإن كان عليه اسم المطبعة، كان يحمل اســـم "بطل من الصفر" قصة كلاينورت ومحمد الفايد. والأول هو اسم البنك الذي دعم الفايد، في صفقة هاوس أوف فرايـــزر. وقد كشف تيني رولاند عن أنه هو الذي يقف وراء الكتـــاب حين تصدرت مقدمة له الصفحات الأولى. وفي هذه المقدمة أعاد تيني كل الادعاءات والأوصاف التي قالها من قبل فـــي حق الفايد... " قل لنا من أين لك هذا؟". "إنك مجرد سمســـار وسيط لسلطان بروناي"."إنك تخالف القـــوانين والإجـــراءات البريطانية". "أنت رجل معدم". "إن الرجل الذي وافـــق فـــي البنك على صفقة الفايد ارتفع راتبه إلى الضـــعف بعـــدها". "إنني لا أعترض على أن الفايد مجرد سمسار أو عميل سري للبنك ولكني أعترض على الغش". "إن الأمور التي حـــدثت مضحكة ومحرجة إذ كيف يرى وزير التجارة حـــين تمـــت الصفقة أنه لا يوجد بالمسألة أي خطأ"

ولم يقف الأمر عند هذا الكتاب.. فقد كان لدى تينـــي شيء آخر.. كانت لديه فيضحة للفايد.

وكان عنوان الفضيحة هذه المرة هــو: "الفرعــون المزيف" أو "الفرعون المحتال" أو "الفرعون الدجال".. حسب الترجمة التي يمكن صياغتها لمانشيت جريــدة "الأوبزرفــر" الذي كشف هذه الفضيحة: Phoney Pharaoh

كان الأمر مثيرًا للغاية في ذلك اليوم في بريطانيا. إذْ أنها المرة الأولى التي تصدر فيها الصحيفة عددًا خاصًا مــن هذا النوع، بعد أن أصدرت عددها العادي.. صــحيح أنهــا فعلت ذلك من قبل حين أعلنت الحرب العالمية الثانية، وحين أعلن استسلام دول المحور، وحين أوقف إطلاق النــار فــي الحرب نفسها، وحين اشتعلت حرب كوريــا، وحــين مــات تشرشل.. لكنها هذه المرة أصدرت عددًا خاصًا لأنها قررت أن تفضح الفايد.. وكانت طريقة الفضح هي كشف التقريــر الذي حكمت محكمة الاستئناف بأن من حق وزارة التجــارة ألا تنشره. وكانت مناسبة الفضيحة هي عقد المؤتمر السنوي لشركة " لونرو" التي يملكها تيني رولاند. وهناك تم توزيــع نسخ من الصحيفة حيث بدا أن المليونير الإنجليــزي يريــد إقناع المساهمين والموظفين بأن حملته سوف تنجح بالتأكيد.

وقامت قيامه الحكومة البريطانية، فالتقرير الذي تسرب ونشر ملخص له به الكثير، وهو بالتالي ما جعلها تصدر فورًا أمرًا بسحب الجريدة من الأسواق.. وقد حدث.. وكان المبرر هو أن التقرير به وقائع يمكن أن تؤثر على سير التحقيق في ملفات ينظر فيها القضاء.

ولكن الطلقة كانت قد خرجت من المسدس فعلاً وأصابت محمد الفايد رغم أنه لم يتعرض لأي شيء واضح بسبب هذا التقرير.. لم يقدم للمحاكمة.. ولم يحاسب.. ولم يعاقب.. إلا أنه وكما يقول المثل المصري العامي تعرض "لعيار ناري لم يصبه ولكن صم أذنيه"

والتقرير المذكور يتكون من ٧٥٠ صفحة.. مليء بالاتهامات لآل الفايد.. بل إنه سيرة حياة يراها الناس في بريطانيا على أنها حقيقة، وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا. وسواء كانت الاتهامات دقيقة أو غير ذلك. فإنها يجب أن تقرأ هنا لأنها جزء من القصة وتكاملها... إنها تتضمن الآتي:

* إن الإخوة فايد قدموا شهادات ميلاد مزورة وهم يعلمون أنها مزورة.

* أنهم كذبوا في أصلهم لأنهم في الواقع من أسرة متواضعة الأصل، وهم أبناء مدرس بسيط، في حين أكدوا أنهم من أسرة عريقة من أكبر العائلات المصرية، وأنهم كانوا يملكون شركات ملاحية وأراضٍ زراعية، ومصانع لأكثر من مائة عام.
* أنهم غيروا اسمهم من فايد إلى آل فايد.
* تأكد أن ادعاءهم بأن لهم أصولاً بريطانية غير صادق.
* أنهم لم يشتروا اليخت " دودي" على اسم ابن محمد الفايد.. إلا في الستينيات وليس قبل ذلك كما زعموا.
* أن سلطان براوناي لم يكن صديقًا لوالدهم، بل إنه لم يلتق به على الإطلاق، برغم ارتباط آل الفايد به الآن.
* أنهم كذبوا في أنهم غادروا مصر عام ١٩٦٢ ومعهم ٢٠ مليون جنيه استرليني.
* أنهم كذبوا في ادعائهم بأنهم كانوا يملكون أسطولاً من السفن التجارية قبل فترة حكم جمال عبد الناصر وأنهم يملكون الآن سفينتي بضائع حمولة كل منهما

١٦٠٠ طن فقط و ١٤ سفينة أخرى تم شراؤها في دبي.

* أنهم كذبوا في ادعائهم بأنهم كونوا ثروتهم من أعمال البنوك والفنادق والبترول والأعمال العقارية.
* أن الأموال التي غطت صفقة شراء هارودز ليست مملوكة لهم بالكامل. وأن كل ما ادعوه بشأن تقدير ثروتهم ببليون دولار غير صحيح.

كل هذا الكذب!

ورغم ذلك تم ابتلاع التقرير فورًا، ولسبب غير معلوم وغير واضح، وبما يوحي بأنه كانت هناك علاقة من نوع ما بين الحكومة البريطانية والفايد.. ورغم هذا مضى محمد الفايد يؤكد أنه دخل هارودز ولن يخرج، ويقول وكأنه يخرج لسانه لتيني رولاند: " هذه أهرامي، سوف أبقى فيها إلى الأبد، ولن أخرج منها، ويمكن أن أدفن فوق سطحها".. وأضاف: " إن كل ما قلته عن أصل عائلتي صحيح، ومدينة فايد المصرية سميت باسم القبيلة التي أنتمي إليها، والمنطقة التي ولدت فيها قبل ٥٨ عامًا كانت غاية في الاحترام، وهي وسط الحي التجاري، ولكن الأمور لا تستمر على ما هي

عليه. وإذا كنت فقيرًا فسوف أعترف بهذا، لأن الفقر لـــيس عيبًا، وهذا الفقر كان سيعطي أي قصة أنسجها حول نفســـي بعدًا رومانتيكيا أفضل.. لأنني سوف أظهر وقتهـــا وكـــأني مشرد جذَّاب، خرجت من الصحراء معدمًاً وفعلت ما أريد .. عمومًا إن القافلة تسير والكلاب تعـــوي.. فلينـــبح أعـــدائي وليصرخوا ولكنني باقٍ هنا.. ولي ولإخـــوتي عشـــرة أولاد بينهم سبعة ذكور وسوف نبقى هنا ألف سنة"

منتهى التحدي.. أمام كل هذا الهجوم.

ويبدو أن محمد الفايد، هذا الرجل العنيـــد الصـــارم، كان لديه إحساس هائل بالقوة، وبأنه سوف يفوز في النهاية.. إذ أن هذا ما حدث فعلاً في مايو ١٩٨٩، حيث خسر " تيني رولاند" كل شيء. وصدر حكم مجلس اللـــوردات.. أعلـــى محكمة استئناف في بريطانيا لصالح محمد الفايد.. وأقـــرت المحكمة أنه يوجد ضرورة لرفع أمر هذه الصفقة إلى "لجنـــة الدمج والاحتكارات". وأنها ترفض إصدار توجيهـــات إلـــى وزير الخارجية بأن ينشر التقرير الذي تم إعداده حول أسرة الفايد.

إنه الفوز الحاسم. إنه الانتصار الذي جعل الثمرة المحرمة تهضم تمامًا في معدة الفايد.

ومن المفارقات أن هذه المعركة التي انتهت أخيرًا بعد سنوات من الاشتعال.. كانت لها ذيول أخرى.. وكان أهم ذيل هو ذلك التقرير الذي احتفظت به وزارة التجارة.. ثم نشرته بعد أن هدأت الأجواء.. ثم رأى المدعى العام أنه تقرير "به الكثير من الأقاويل التي لا تعتمد على مستندات ولا يقبل كأساس لرفع دعوى أمام المحاكم"

هذا الذيل تحول إلى سمعة سيئة.. حفرت ندبة في وجه الأسرة.. بحيث أسرعت إلى إجراء عمليات تجميل عديدة لتخفي ما علق في وجهها من آثار المعركة.

وكانت هناك ذيول أخرى لأطراف هذه المعركة.. أطراف من مصر ومن دول أخرى.

٤

الرجل الخفي

- <u>خُذ مالى والعب لى به!</u>

" ووقف الزعيم الكــوبي العجــوز يمارس هوايتـــه ويطـــبخ الأطبـــاق لمحمد الفايد، وبعد الأكل خرجا معًا لصيد البط"

قبل أن يشتري محمد الفايد محلات هارودز كان قد خرج لتوه من صفقة ذات نوع خاص. صفقة اشترى فيها وباع.. ثم اتضح فيما بعد أن دور هذا الملياردير في الصفقة لم يكن يزيد على دور سمسار.. أو للدقة ستار اختفي وراءه المشتري الحقيقي.

كان هدف الصفقة هو علامة أخرى من علامات لندن.. فندق " دوشتسر".. الذي لا يقارن بالطبع بكل ما لدى هارودز من سمعة.. لكنه كان أيضًا واحدًا من رموز العاصمة البريطانية العريقة..

لقد بنى هذا الفندق في نهاية عام ١٩٢٩، في وقت اشتدت فيه الأزمة الاقتصادية العالية.. ومضت سنوات عديدة قبل أن يصبح فندقًا مرموقًا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.. وقتها صار ملتقى رجال الطبقة الارستقراطية البريطانية.. وأصبح أحد الأماكن المفضلة للعائلة المالكة.. بل إن الملكة إليزابيث- التي كانت أميرة في ذلك الوقت حضرت به أول حفل راقص في حياتها.

كان الفندق- ولم يزل – مكانًا مميزًا للغاية.. يرتاده عدد كبير من الشخصيات البارزة في العالم.. الملك فيصل..

الملك حسين.. والسلطان حسن بلقيه.. وكانت تميزه قاعة جلوس فخيمة بها أعمدة رومانية.. وعدد كبير من الأشجار الصناعية الذهبية.. بل وبه ردهة مغطاة تمامًا بأوراق من الذهب الخالص.

في السبعينيات انهارت سمعة الفندق، وتدهورت أوضاعه، وأضطر مُلاكه لأن يعلنوا عن رغبتهم في البيع، فتقدمت للشراء مجموعة عربية أفرزتها فورة النفط، وضخمتها المضاربات المالية، وتمت الصفقة.. ووقع العقد ممثلاً عن هذه المجموعة العربية الملياردير موفق الميداني.. الذي سرعان ما قام بعملية تطوير واسعة للفندق، خاصة في اتجاه الأثاث والمفروشات التي تدنى مستواها تمامًا.

في هذه الأثناء، وبعدها، كان فندق دوشتسر هو المكان المفضل للسلطان حسن بقليه.. سلطان بروناي.. هذه الدولة الصغيرة جدًا في قلب آسيا والتي تقوم فوق بحر من الغاز والبترول. كان زبونًا دائمًا.. وله صفات واضحة لكل العاملين في الفندق، رغم أنه كان حين يسير بين جنبات المكان بالملابس العادية لم يكن باستطاعة أحد من نزلاء

الفندق أن يميزه عن أي عامل به، أنهى وردية عمله، وضل طريقه، ولم يخرج من الباب المخصص للعاملين.

لقد كان هذا الرجل الذي لم تستقل دولته عن بريطانيا سوى في عام ١٩٨٤ هو أغنى رجل في العالم. ولم يزل كذلك.. حتى أنه في كل عام يتصدر قائمة تصدرها مجلة فوربس الأمريكية لأكثر الناس ثراء في العالم.. تتجاوز ثروته الثلاثين مليار دولار ــ وهي أرقام جعلته رجلاً ذا طابع أسطوري ــ حولته إلى شهريار.. يعيش في القرن العشرين بمنطق ألف ليلة وليلة.. لا يتورع عن أن يتزوج من حين لآخر زوجة جديدة.. ولا يجد في أن يقيم لنفسه حفل عيد ميلاد – كما حدث في عام ١٩٩٠– يحضره نحو عشرة آلاف فرد.. لا يجد في ذلك أي شيء معيب.. خاصة أن شعبه المسكين الهادئ القنوع الخنوع يلتزم الصمت خلف جدار يتمثل في أن ثروة البلاد من البترول جعلت المواطن في بروناي صاحب أعلى مستوى للدخل في العالم " نحو ٢٥ ألف دولار"

والسلطان حسن هو كل شيء في هذه الدولة الصغيرة، إنه السلطان، ورئيس الوزراء، ووزير المالية

ووزير الداخلية.. وأخوه الصغير وزير الخارجية، وأخوه الأصغر وزير الثقافة والشباب، وأبوه الذي كان سلطاناً وتنازل عن العرش هو في نفس الوقت وزير الدفاع.

وعلى الرغم من أنه يتمتع بكل هذا الثراء والنفوذ، إلا إنه شاب خجول إلى حد بعيد.. وربما كان يخفي هذا الخجل وراء ستائر ثقيلة من الفخامة والإنفاق الباهظ الذي يصل في أحيان كثيرة إلى حد الابتذال.. إنه مثلاً يعيش في قصر لا يوجد له مثيل في العالم.. به قرابة ١٨٠٠ غرفة. وله مهبط طائرات هليوكوبتر.. وموقف سيارات يتسع لانتظار ٨٠٠ سيارة.. ولديه هو شخصيًا أسطول طائرات خاص.. بينها طائرة إيرباص صنعت له خصيصًا بمواصفات طلبها هو بنفسه. ومن بين أملاكه مزرعة ماشية مترامية الأطراف في أستراليا. ولديه مجموعة أسطورية من المجوهرات وكثير منها موزع بين زوجاته، خاصة الأولى السلطانة " صالحة" التي يقال أنه صالحها ذات مرة بخمسين مليون دولار.

ورغم أن السلطان يرفض الأحاديث عن حجم ثروته ويقول أن الصحف تخلط ما بين ثروته وثروة بلاده.. إلا أن

هناك ما يؤكد أنه يملك ٦٣ سيارة مرسيدس من طراز ٦٠٠ إس إي سي فضلاً عن ١٥٧ واحدة من طـــرازات أخـــرى لمرسيدس وفوق كل هذا مائـــة ســـيارة رولـــزرويس و ٢٠ سيارة فيراري نادرة وسبع سيارات جاجوار.

إنها صورة سلطان لدولة لا يعرف عنها الكثيـــرون شيئًا.. صورته التي تدفع من حين لآخر المراسلين الأجانـــب لزيارة هذه الدولة كي يعرفوا كيف يعيش شعب هذه السلطنة وسلطانه يفعل كل هذا.

وحسب وصف مجلة بارى ماتش فإن هـــذه الدولـــة التي لا تزيد مساحتها على خمسة آلاف و ٨٠٠ كيلو متـــر مربع، يعيش بها ٢٢١ ألف نسمة، ٤٠% منهم من الشباب، تقع في جزر الهند الشرقية، وتحوطها الفلبـــين وأندونيســـيا، وعادة ما يتم الوصول إلى أرضها من خلال ماليزيا.. مناخها استوائي حار يتميز بالرطوبة المرتفعة دائمًا..

وأرضها عبارة عن تـــلال ومرتفعـــات اســـتوائية.. اكتشفوا البترول في أرضها عام ١٩٢٩ فتحولت إلى واحـــدة من أغنى دول العالم. خاصة انها تنتج نحو ٢٠٠ ألف برميل يوميًا.

هذه الدولة التي ظلت نحو مائة عام تحت الحماية البريطانية، قبل أن تستقل فقط في عام ١٩٨٤، أي قبل عام واحد فقط من صفقة هارودز، شعبها مسالم للغاية. ليست له علاقة بأية أمور سياسية.. لم يتمرد أبدًا إلا حين كاد أن ينضم السلطان إلى اتحاد مع ماليزيا.. ومن يومها فرض حالة الطوارئ التي لم ترفع حتى الآن.

هؤلاء الناس الذين يعيشون في بيوت تقليدية عادية على ضفاف نهر " بروني ".. لا يعانون من أية مشاكل.. فالتعليم مجاني والضرائب غير موجودة.. والقروض متاحة بدون فوائد تقريبًا.. وميزانية الدولة بسيطة لا تعاني العجز أبدًا.. ويمكن لأي مواطن أن يحصل على عديد من الأجهزة التي تحتاجها البيوت الحديثة بدون عناء.. ويمكن له أيضًا أن يقلد السلطان ويلعب " البولو"

و" البولو" لعبة يحبها الإنجليز. واشتهرت في العالم بسبب حب الأمير تشالز لها.. وقد كان عماد الفايد ابن محمد الفايد يلعبها أيضًا. لكن السلطان بدأ يتعلمها في منتصف السبعينات، متأثرًا فيما يبدو بعديد من مظاهر الحياة الإنجليزية الأخرى.. وقد بلغ حبه لها درجة جعلته يدفع

رجال الشرطة والجيش أن يتعلموها كي يمارسوها معه.. حتى أنه أرسل عددًا من كبار رجال الدولة إلى الفلبين كي يتعلموا هناك أصول هذه اللعبة التي تمارس بالمضارب من فوق ظهور الخيل.

والواقع أنه يعشق بريطانيا، ومن هنا فهي المكان الذي يسافر إليه كثيرًا ودائمًا.. حيث يقيم في فندق " دوشتسر" الذي بلغ غرامه به مدى بعيدًا.. وفي هذا السياق تروى حكايات غامضة عن أنه كان دائمًا حين يصل إلى لندن يفضل أن يقيم في الجناح الملكي لهذا الفندق، لكنه كان دائمًا ما يجده مشغولاً.. وبالتالي قرر أن يجعل هذا الجناح مخصصًا له بشراء الفندق كله!

وعلى الرغم من أن هذا التفسير الذي يروي في بعض صحف الغرب غير منطقي إلى حد بعيد، إذ بإمكان السلطان أن يحجز هذا الجناح المكون من دورين، ما يريده من أيام للإقامة في الفندق قبل أن يصل بفترة طويلة، ويمكن له أيضًا أن يستأجر الجناح طوال العام بدون أن يتحمل تكاليف ثمن الفندق كله.. على الرغم من أن هذا التفسير ضعيف.. إلا أن السلطان اشترى الفندق عن طريق الفايد.

وربما نتخيل أن السلطان اشترى الفنـــدق لأســـباب عديدة، أهمها أنه مكان مميز عريق في لندن، التي حكم أهلها بلاده نحو مائة عام، وأبرزها أنه اشترى مكانًا، في كل ركن به قصة لرجل هـــام.. أو امـــرأة مـــؤثرة.. مثـــل الملكـــة إليزابيث.. التي أعجب بها كثيرًا السلطان حسن بلقيه، وكان في قمة سعادته حين زارت بلاده في منتصف الثمانينات في جولة شملت عددًا من دول آسيا الأخرى.

لقد كان السلطان منبهرًا بالفندق تمامًـــا، رغـــم أنـــه يستطيع شراء قصر فخيم في أي مكان في انجلترا، بل وفي العالم كله، خاصة أنه في كل زيارة له كان يسمع الكثير عن الفندق..

كانوا يقولون له: هذا الفندق انتعش تمامًا بعد الأزمة الاقتصادية العالمية في عام ١٩٢٩، وكان يستدعي في كـــل أسبوع أجمل فتيات الباليه من نيويورك ليرقصن كل أحد في سهراته المبهرة.

وكانوا يقولون له: هذا الفندق هو أول من ابتدع من بين كل فنادق لندن إقامة حفل راقص بعد العشاء الخفيف، ثم تعرض مسرحية يعقبها عشاء أثقل، ويستمر بعدها الـــرقص

حتى الصباح.. حيث لم يكن مسموحًا لأحد بالحضور إلا إذا ارتدى الردنجوت.

كانوا يقولون له: هذا الفندق لم يهتز في القصف الذي ضربت به لندن خلال الحرب العالمية الثانية، لأنه ضد القنابل، ولأن هيكل الأسمنت الذي يحميه سمكه نحو ثلاثة أقدام.. بل إن طول أسياخ الحديد التي بنى بها قد يصل إلى نحو ألفي ميل، وقد غُطيَ بمائة وأربعين ألف قدم مربع من الرخام.

كانوا يقولون له: هنا جاء الممثل الأمريكي المرموق داني كاي، وريتا هيوارث، ومارلين ديتريتش، وإليزابيث تايلور، وفيفيان لي، وبريجيت باردو، وألفرد هتشكوك- وصوفيا لورين.. والملكة إليزابيث التي تناولت هنا العشاء في نفس اليوم الذي أعلنت فيها خطوبتها من الأمير فيليب والد ولي العهد الحالي الأمير تشالز.

" نقلاً عن كتاب أثرياء العالم، للدكتور هشام الحديدي، الدار المصرية اللبنانية "

لكنني لا أعرف إن كانوا قد قالوا أيضًا للسلطان أن عرش الفندق اهتز تمامًا في بداية السبعينيات، وواجهت

الشركة التي تملكه أزمة مالية حادة، دفعت حـــاملي الأســـهم لأن يوافقوا على بيعه لشركة أوروبية مقابل ٩ ملايين جنيـــه استرليني، ما لبثت هي الأخرى أن باعته بدورها إلى رجـــل أعمال فرنسي بـــ ١٨ مليون جنيه اســـترليني، وكـــان هـــذا الرجل في الواقع واجهة خفية لمجموعة من رجال الأعمـــال العرب اتضح فيما بعد أنهم هم الذين اشتروه.. وليس رجـــل الأعمال الفرنسي.. وصار ملكًا لهؤلاء حتى عام ١٩٨٤ حين ظهر محمد الفايد كمشترٍ مصري جديد لهذا الفندق العريق.. ثم باعه لسلطان براوناي.

إن أحدًا، على وجه الدقة، لا يعرف كيـــف نشـــأت العلاقة بين السلطان حسن بلقيه.. ومحمد الفايـــد.. وروايـــة رجل الأعمال المصري المرموق لهذه النشأة لـــم تصـــدقها السلطات البريطانية.. خاصة حين زعم أن أباه كان صـــديقًا للسلطان.. ولكن ليس بعيدًا علـــى أي شـــخص لـــه درايـــة بالأسواق أن يدرك أن نشوء هذه العلاقة ممكن للغايـــة بـــين رجل احترف السمسرة الدولية منذ زمن طويل، خاصة فـــي سوق البترول، هو محمد الفايد.. وبين رجل يســـيطر علـــى واحد من أكبر الأماكن إنتاجًا للبترول في العالم. يمكن أيضًا

أن ندرك أن شخصًا مثل السلطان حسن بلقيه، هو في الواقع هدف لعديد من رجال الأعمال في العالم الذين يربحون الكثير من خلال الوساطات وعمليات السمسرة والقيام بأدوار لا يستطيع السلطان أن يقوم بها بنفسه.

ومن بين هذه الأدوار التي لعبها محمد الفايد لصالح سلطان بروناي قيامه بشراء فندق " دوشتسر" له.. وإنهاء الصفقة بكل تفاصيلها الكاملة.. دون أن يظهر المشتري الأصلي. وتسليمه بضاعته في النهاية.

في هذا السياق ذكرت في البداية حكايات تقول أن المغامرة كلها كانت في الأصل لصالح محمد الفايد.. فهو صاحب الرغبة في شراء الفندق.. وهو صاحب الفكرة.. وصاحب قرار الشراء.. وصاحب المال.. الذي دعمه بضمانات مصرفية عديدة.. ثم استطاع فيما بعد إغراء السلطان بشرائه.. وربح هو بعض الملايين.

لكن السلطان حسن نفسه قال شيئًا غير هذا في لقاء تليفزيوني أجرى معه أثناء أزمة " هارودز"، وحين ذكر اسمه كثيرًا باعتباره المالك الأصلي للمحلات المرموقة وأن محمد الفايد اشتراها له ومن أمواله هو.. أي السلطان.. لقد

قال حسن بلقيه: إن آل الفايد هم أصدقائي، وأنا لست على استعداد لأن أتخلى عنهم تحت وطأة أي ظروف أو لأي أسباب". وأضاف: "لقد أعطيت تفويضًا للسيد محمد الفايد لكي يشتري لي فندق " دوشتسر".. وأعطيته قدرًا من المال كي يغطي المصروفات الخاصة بهذه العملية.. ولكن هذه المصروفات ليست سوى مبلغ صغير لا يمكن له أن يلعب أي دور في صفقة " هاوس أوف فريزر" مالكة هاردوز"

وكشف السلطان مزيدًا من التفاصيل: " إن التوكيل الذي أعطيته لمحمد الفايد تم إلغاؤه في عام ١٩٨٥ بعد أن اشتريت فندق " دوشتسر" ولم أعطه أي توكيل لعمل آخر.. فأنا أعتمد على خطة واضحة في استثماراتي.. وهي أن أدير أموالي عبر البنوك التجارية والمستشارين الخصوصيين" ومن هنا فإنه ليست لي علاقة بامتلاك آل فايد لشركة " هاوس أوف فريزر".. ولم أساهم معهم أو أساعدهم بأية أموال من أجل إتمام هذه الصفقة.. وإذا كانوا قد استخدموا التوكيل الذي أعطيته لهم لشراء فندق دوشتسر في مصالحهم التجارية، فإنهم يكونون قد فعلوا ذلك بدون موافقتي".

ثم عاد وأضاف: ربما وجد محمد الفايد في هذه الوكالة ما يعينه على جمع المال اللازم لتمويل صفقاته التجارية، لكن الوكالة القانونية تم إلغاؤها بالفعل، ولم يعد هناك بيني وبينهم أي تعامل تجاري.. رغم أن هناك علاقة صداقة معهم.

واقع الأمر أن الفايد كان ولم يزل معروفًا بعلاقاته العديدة مع شخصيات مختلفة في العالم، شخصيات تنعم بالثروة والدور السياسي والعلاقات التجارية العديدة.. وهي صفة يبدو أنه تعلمها من صهره الأول عدنان خاشقجي.. وقد استمرت معه منذ بداية حياته كان صديقًا وشريكًا لآل مكتوم في دبي. " التفاصيل في فصل خاص عن ثروة الفايد" واستمرت كذلك معه – هذه الصفة – فيما بعد صفقة هارودز، حتى أنه عرف بأنه صديق لكاسترو زعيم كوبا.

وفي عام ١٩٩٦ دعا فيدل كاسترو محمد الفايد لزيارة الجزيرة التي تحاصرها الولايات المتحدة اقتصاديًا منذ سنوات طويلة. وكان الهدف هو أن يحصل الفايد على عقود تجارية من كوبا يكون بها من حقه احتكار تسويق السيجار الكوبي الشهير في بريطانيا. ولكن مايكل كول المتحدث باسم

الفايد أكد أيضًا أن الهدف من الرحلة أمور أخرى عديدة.. ربما كانت من بينها عقود رحلات سياحية.

ولم تكن هذه هي الرحلة الأولى لمحمد الفايد إلى كوبا، بل إنه فعل ذلك مرات كثيرة، ولكن الزيارة في هذه المرة كانت ناجحة للفايد.. واستضاف فيها كاسترو الفايد في بيت يملكه الزعيم الكوبي على تل خارج العاصمة هافانا.. وتحولت بمضي الوقت من زيارة عمل إلى زيارة اجتماعية.. خاصة بعد أن انضم للاثنين صديق مشترك هو الممثل الفرنسي المعروف جيرار دي باردیو.. واصطاد الفايد مع كاسترو البط.. وقدم له الرئيس العجوز المعروف بأنه يهوى الطبخ عده أطباق من صنع يديه.. وعاد الفايد إلى بريطانيا حيث قال المتحدث باسمه أن الفايد سوف يعود في وقت لاحق إلى كوبا، خاصة أن لديه دعوة مفتوحة من الرئيس الكوبي.

تعود إلى قصة فندق " دوشتسر " الذي لم تنته قصته عند حد قيام السلطان حسن بلقيه باستعادة الأموال التي قدمها للفايد في شكل الفندق مع بعض الأرباح للفايد.. ذلك أن الإمبراطور المصري لم يقنع بهذه الأرباح.. وقرر أن

يحصل على ما هو أكثـــر.. أن يحصـــل علـــى حـــق إدارة الفندق..

ذلك إنه أثناء مفاوضات محمد الفايد لصالح الرجـــل الخفي على شراء الفندق كانت تواجهه صعوبة عدم موافقـــة شركة " ريجنت العالمية" على أن تترك له عقد إدارة الفندق.. وأصرت الشركة على أن تنفذ عقدها حتى النهاية.. وقبـــل الفايد على مضض حتى تنتهي الصفقة التي لو ظهـــر اســـم السلطان بها سوف ترتفع قيمتها.. أضعافًا مضاعفة. ومـــرت الأمور.

لكنه – أي محمد الفايد– ما لبث حين تم توقيع العقد أن رفع دعوى قضائية أمام المحاكم البريطانية طاعنًـــا فـــي سلامة إدارة شركة " ريجنت العالميـــة" لفنـــدق دوشتســـر.. واستطاع أن يكسب كما هي العادة.. وصار مـــن حقـــه أن يدير الفندق، حتى بعد أن امتلـــك الســـلطان حســـن بلقيـــه "دوشتسر".. وربما كانت تلك هي المكافأة الثانية التي أعطاها له الرجل الخفي مقابل إتمـــام الصـــفقة، بالإضـــافة إلـــى " المصروفات الصغيرة" التي منحها له من قبل.

بعد هذا بعدة أشهر صارت هـذه الصـفقة حـديث بريطانيا كلها... وكان السبب هو صفقة أخرى أهم.. صفقة " هارودز" التي قيل أن الرجل الخفي كان هو أيضًا الذي يقف وراءها.. كما حدث في حالة فندق " دوشتسر" .

٥

الطفل المعجزة

- يا صديقي رولاند سوف أتصنت لك عليه

"وكان السادات يقــول أن أشــرف مروان يقدم خدمات جليلة لهذا البلد بأساليب لا تسمح لــي كرامتــي أن أقوم بها"

إنه حفل عشاء.. اثنان فقط على المائـــدة. أشـــرف مروان وتيني رولاند.. صديقان قديمان ليست هذه هـــي أول مرة يتناولان فهي العشاء سويًا.. وليست المرة الأولى التـــي يكون فيها العشاء مناسبة للاتفاق على صفقة.. فهذا يحـــدث كثيرًا بينهما منذ ١٣ عامًا، ومنذ تعارفنا وتشاركا فـــي عـــام ١٩٧١.

لكن هدف العشاء في تلك المرة كان هامًـــا للغايـــة وضروريًا بالنسبة لتيني رولاند. فـــالأمر يتعلـــق بـــالثمرة المحرمة.. يتعلق بمحلات هارودز.. والتي كان تينـــي قـــد أبعد عن تحقيق حلمه فيها في ذلك الحين، بعـــد أن رفضـــت لجنة مكافحة الاحتكار عرضه بأن يشتري مؤسسة " هـــاوس أوف فرايزر" التي تملك هارودز. وقتها كان مفروضًا علـــى شركة " لونرو" التي يملكها تيني رولاند ألا تزيـــد حصـــتها على ٢٩,٩%. وكان هدف العشاء هو الاتفاق بـــين الاثنـــين على الالتفاف حول هذا القرار بأن يبدأ أشرف مروان شراء مجموعة من الأسهم في "هاوس أوف فرايزر" لصالح تينـــي رولاند بدون أن يظهر " تيني" نفسه وشركته في الصـــورة. "نقلاً عن صن داي تليجراف"

إنها تقريبًا نفس الفترة الزمنية التي حدث فيها التلامس الجديد بين تيني رولاند ومحمد الفايد. والذي يبدو أنه كان مكلفًا بنفس مهمة أشرف مروان من تيني، باستثناء بسيط هو أنه قام بشراء الأسهم من تيني ولم يعدها. "راجع فصل الثمرة المحرمة" وهي أيضًا نفس الفترة الزمنية التي شهدت بداية الصراع بين الفايد وأشرف مروان، بحيث صار الأخير وقودًا استخدمه تيني رولاند في حربه ضد الفايد.

إن المليونيرين المصريين اشتبكا من قبل في علاقات مع تيني رولاند. ولكن الاشتباك قبل ذلك كان ارتباطًا. وكلاهما وجد طريقة إلى دنيا الأعمال الدولية من خلال لندن. وكلاهما له شركة أو أكثر مسجلة في إمارة ليخشتاين. وكلاهما عمل في النفط. وكلاهما كان البترول جزءًا من أسباب ثرائه. وكلاهما تحول إلى بطل من الصفر. وكلاهما وجد عددًا من الأثرياء العرب ليجروا قاطرته. وكلاهما لديه قصور وفيللات في عدد هائل من دول العالم.

وكلاهما يلعب الآن في البلايين.

قد تكون كل هذه الصفات عناصر تشابه بين الاثنين. ولكنها أيضًا قد تكون سببًا للصدام في دنيا لا تعترف

بالجنسية، وبالانتماء إلى وطن واحد.. فهذه أفكار ساذجة في مستنقعات لا تعرف سوى قانون الديناصورات!

لقد كان مدخل محمد الفايد إلى دنيا المال والتجارة من خلال المصاهرة. وكذلك كان مدخل أشرف مروان.مع فارق بسيط هو أن الأول تزوج أخت ملياردير سعودي، والثاني تزوج ابنة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر.. ومع فارق زمني بسيط أيضًا لا يزيد على ١٦ عامًا، إذ بينما كان محمد الفايد قد تزوج وطلق ثم انطلق، كان عمر أشرف مروان لا يزيد على عشر سنوات، وحين كان الفايد قد وضع رجله على أول الطريق، بل وقطع نحو ربع هذا الطريق، كان أشرف مروان يتحسس موقعًا لنفسه.. ربما يكون موجودًا وربما لا.

إن هذا الشاب الذي اسمه "محمد أشرف أبو الوفا مروان" هو ابن اللواء أبو الوفا مروان الذي كان مدير الإمدادات والتموين في الجيش، نجح في أن يتعرف على ابنة الرئيس جمال عبد الناصر في نادي الضباط بمصر الجديدة. لقد كان لم يزل ضابطًا صغيرًا في الجيش انضم إليه حديثًا

بعد أن تخرج في كلية العلوم.. لكنه استطاع بشكل ما أن يقنع مني جمال عبد الناصر بأنه فتى الأحلام المنشود على الرغم من أنه كان يعاني من ثقل في النطق. حتى أن هناك من يرى أن الرئيس وافق على هذا الزواج قبل أن يراه بعد أن سمع عنه من ابنته الكثير.

لقد أُعطى أشرف مروان حظًا وأُلقى في بحر السياسة والسلطة.. وفي قلب أمواج صناعة القرار.

إذ بمجرد أن تزوج ابنة الرئيس كان أن دخل مكتبه، أسوة بابنة الرئيس الأخرى وزوجها حاتم صادق. وبمجرد أن دخل مكتب الرئيس بحث له سامي شرف عن دور؛ فجعله حلقة الوصل بين المكتب وسلاح المهندسين الذي كان ضابطًا به، حتى يتابع عمليات تطوير الأسلحة والاستعانة بالكيماويات، ليس لأن سامي شرف يعاني في وصول المعلومات من سلاح المهندسين، ولكن لأنه – أي سامي– يريد أن تكون له عين خاصة داخل السلاح.. وكانت هذه العين هي أشرف أبو الوفا مروان.

ويقول موسى صبري في كتابه " السادات – الحقيقة والأسطورة"، وهو مصدر أساس ننقل عنه هنا تفاصيل قصة

أشرف مروان، وأنه كان رغم ذلك مساعدًا محدود الاختصاص لسامي شرف، وكان يرتعش حين يقف أمام الرئيس عبد الناصر، لكنه انتقل فجأة إلى موقع أفضل حين احتفظ به أنور السادات في مكتبه، وانتهز هو الفرصة كي يحتل موقع سامي شرف، فكان الرئيس السادات يقول له "لسه بدري يا أشرف.. لما تتمرَّن"

في غضون هذا توثقت علاقات أشرف مروان مع عائلة الصباح في الكويت، ومع جيهان السادات في مصر، ويقال أنه ترددت شائعات غير دقيقة حول تورط أشرف مروان في علاقات تجارية ورد فيها اسم عائلة الرئيس، وهو ما دفع عددًا من القوى في رئاسة الجمهورية لأن تقف أمامه.. وأعلن ضابط مسئول عن الأمن في مكتب الرئيس عداءه له.. لأنه يسيء إلى سمعة السادات.. لكن هناك من طلب من هذا الشخص أن يوقف محاولاته تلك... فتوقف.. واتسع نفوذ أشرف مروان ووصلت يداه إلى أدق التفصيلات في حياة الرئيس.. حتى أنه كان يختار بنفسه المضيفات في طائرة السادات. وتدعم موقفه وقويت علاقته بالرئيس حين

أوحى له بأنه يعاني من عداء داخل أسرة أصهاره – أسـرة جمال عبد الناصر – بسبب بقائه يعمل ضمن طاقمه.

واقع الأمر أن السادات كان يدعمه لأسـباب غيـر واضحة ولأسباب أخرى غيرها معلنة تمامًا.. إذ نقـل عـن السادات ذات مرة "إن أشرف يقوم بخدمات للبلد لا تسمح لي كرامتي أن أقوم بها.. وكمثال فإنني لم أكن أعرف أن أحـد المقربين الملك عربي يتقاضى رشوة وهو رجل يساعدنا فيما نطلبه من هذا الملك، وأشرف يقوم بهذا". وفي مرة أخـرى قال السادات: "أنا لا أقبل أن أمد يدي إلى أي حاكم عربـي، ولكننا نتعرض لمآزق مالية خطيرة، وأشـرف يقـوم بهـذه المهمة". ويقول موسى صبري: إن دبلوماسية السادات التـي كانت تقوم على الاتصال المباشر مع الرؤساء كانت تجد من ينقذها في شخص أشرف مـروان، بـدون بروتوكـول أو إجراءات سمية .. وهو يتعامل مع الأمراء العرب بدون كلفة وبدون رسميّات.. ويعبر لهم بكلام صريح عن التصـرفات التي تغضب السادات أو المطالب التي يريد تحقيقها وفي هذا يختلف تمامًا دوره عن وزير الخارجية.

فوق هذا فإن السادات قال أيضًا: " لقد قام أشرف مروان بتقديم خدمات ممتازة في موضوع الأسلحة، واستطاع بجهده الشخصي وعلاقاته أن يذلل كثيرًا من العقبات مع المصانع الفرنسية بالذات.. وفي أوقات محرجة قبيل حرب أكتوبر"

ومن هنا يمكن تصور حجم ونوع علاقات هذا الشاب صغير السن، وهي علاقات وفَّرها له ذكاؤه وقدرته على الاتصال، ودعمتها دولة تسانده متمثلة في شخص الرئيس، ومن هنا أيضًا ووفق هذه العلاقات يمكن تصور كيف وصل أشرف مروان إلى الثروة التي يملكها الآن.

لقد نجح في أن ينشئ علاقات وطيدة مع أعضاء مجلس قيادة الثورة في ليبيا، وفي مقدمتهم عبد السلام جلود الذي كان يهرب إلى القاهرة بعيدًا عن القيود التي يفرضها القذافي على سلوكه الشخصي. ثم مع أحمد قذاف الدم. وقبلهما مع القذافي نفسه.. وفي ذات الوقت مع البليونير كمال أدهم صهر الملك فيصل الذي تطورت العلاقة معه إلى حد المشاركة في أمور تجارية، لاسيما أن كمال أدهم كان وكيلاً لشركة بوينج في الشرق الأوسط ويتقاضى عمولة عن

كل طائرة تباع في المنطقة.. وكانت لأشرف أيضًا علاقة وطيدة مع هنري كيسنجر.. ثم تطورت دائرة شبكة العلاقات حين عين أشرف مروان رئيسًا للهيئة العربية للتصنيع.

ولكن هذه الشبكة المتمركزة بقوة، كما أدت إلى نمو نفوذ وثروة أشرف مروان، أدت أيضًا إلى متابعة الآخرين له.. ومحاولة الإيقاع به. وقد كانت المرة الأولى في وقت مبكر.. في عام ١٩٧١ حين جرى تحقيق حول تقاضي أشرف مروان عمولة عن صفقة سيارات لرئاسة الجمهورية.. ودافع أشرف عن نفسه بأن الذي تقاضى العمولة موظف كبير آخر في ديوان الرئاسة. وانتهى التحقيق بعدم وجود دليل قاطع على إدانة أشرف مروان.

في مرة أخرى هاجم جلال الحماصي في جريدة الأخبار شراء أشرف مروان لقطعة أرض في الهرم، إذ باعها بعد ذلك بثمن مرتفع وحقق المدعى الاشتراكي في الأمر.. وسئل أشرف عن مصدر أمواله التي اشترى بها الأرض فقال أنها باسم زوجته.. وأن مصدر أموال زوجته هو سيارات تلقتها هدية من دولة عربية باعتبارها ابنة

الرئيس جمال عبد الناصر.. ثم اتضح أن الذي اشترى الأرض منه هو البليونير كمال أدهم.

وفي مرة ثالثة تعرض أشرف مروان لهجوم الصحافة من خلال مقالات على أمين الذي أطلق عليه وصف "الطفل المعجزة" الذي يملك طائرة خاصة يسافر بها كما يفعل أصحاب الملايين.. لكنه نجا من هذا المطب لأسباب لها علاقة بخلاف السادات مع على أمين.. ويقول موسى صبرى أن أشرف مروان لعب دورًا في هذا الخلاف وفي إبعاد على أمين عن السادات، خاصة أن هناك قوى أخرى كانت تؤيد هذا الإبعاد.

وفي مرة رابعة نجح أشرف مروان في إنقاذ نفسه من كمين أعدته له المخابرات العامة. كما يقول موسى صبرى أيضًا – بل وتمكن من اعتقال أعضاء الكمين في شقته، ولم يفرج عنهم إلا حين تم اتصال بينه وبين السادات في إسرائيل. وبدلاً من أن ينجح الكمين في العثور على دليل يؤكد صحة الاتهامات المتداولة حول أشرف مروان، نجح هو في أن يوظف ما حدث لإقناع الرئيس السادات بأن هناك من يحاول تلفيق الاتهامات له.

لكن الاتهامات تراكمت، والقوى توحدت، والعناصر كلها تلاقت، وكان أن أُبعد أشرف مروان من رئاسة الجمهورية، ثم أُبعد أيضًا عن الهيئة العربية للتصنيع.. وانتهت أسطورته مؤقتًا في مصر عام ١٩٧٨.

وإذا كان تلك هي الصورة التي كتبها قلم مصري عن أشرف مروان، وحتى عام ١٩٧٨، فإنني أنتقل إلى صورة أخرى كتبها قلم غير مصري في مجلة "رجال الأعمال" وبعد ١١ عامًا من هذا التاريخ، وخلال الصراع الذي كان محتدمًا بين تيني رولاند ومحمد الفايد حول "الثمرة المحرمة " – محلات هارودز.

إنه من خلال هذه الرؤية المختلفة: "الرجل الغامض.. الشبح". وثيق الصلة بالرئيس الليبي معمر القذافي وابن عمه أحمد قذاف الدم، والذي يقول عنه : "إن مجرد كوني صديقًا لهما لا يعني أنني إرهابي".. إنه الرجل الذي يعيش في عالم من السرية.. والذي لم يكن سوى موظف صغير في مصر حتى منتصف السبعينيات، ثم صار خلال سبع سنوات فقط رجلاً هامًا استطاع أن يقيم إمبراطورية تجارية على مستوى العالم.. له أملاك في شيكاغو ولوس

أنجلوس ومونت كارلو.. وفندق خمس نجوم وقرية سياحية في مايوركا الأسبانية وشركتان في مصر وعدد كبير من الأسهم في شركة "أمريكان إنترناشيونال بتروليم" .. الرجل الذي قدرت ثروته عام ١٩٨٤ بأنها لا تزيد على ٢٠ مليون دولار. ثم قدرها عثمان أحمد عثمان بأنها تصل إلى ٤٠٠ مليون دولار ورغم ذلك يقول هو: "إن الأرقام ليست هامة، فمهما كنتُ ثريًا فإنني لا ألبس سوى قميص واحد وبدلة واحدة"... إنه الرجل الذي يملك أيضًا منزلاً في منطقة كارلتون الشهيرة في لندن، وشقة في مونت كارلو وشقة في القاهرة.. وعمره لم يزل ٤٢ عامًا وقتها.

إنه الرجل الذي يدين إلى الظروف. فقد جاء في الوقت الصحيح والمكان الصحيح. حين بدأت أموال البترول تتدفق على الشرق الأوسط بعد حرب أكتوبر.. وكان له أصدقاء أقويّاء يعملون في البترول.. فأصبح له مكتب خاص في أحد مباني "بيكاديللي" الشهيرة.. تحت اسم "استثمارات مسيتيمو – شركة تمويل خليجية". وهو يقول عن هذا: "إن المكتب ليس سوى ممثل لي، فأعمالي ليست في بريطانيا فقط وإنما في أماكن أخرى كثيرة". ومن هنا فهو يسافر كثيرًا،

حتى أنه يصل إلى مطار هيثرو في لندن نحو ١٥٠ مرة في كل عام.

وتقول المجلة عنه: لقد كان عمره ٢٧ عامًا فقط، وكان هو الذي يتولى ثاني أكبر المناصب ذات التأثير والنفوذ في مصر. كان ينقل أخبار الوزراء إلى السادات.. وهو يقول عن ذلك: "كنت أتمتع بكراهية ٧٠% من المسئولين في مصر، ١٠% يكرهونني لصلتي بجمال عبد الناصر و ٦٠% يكرهونني بسبب عمري. لأنه طبقًا للقانون المصري لا يجوز تعيين شخص في منصب وزير قبل أن يصل إلى سن ٣٥ عامًا. ومن هنا فقد كان إشرافي على الوزراء وأنا في العشرينيات شيئًا غير قابل للتصديق".

ولم يكن عمره قد تخطى العام الـ " ٣١ " حين أصبح رئيسًا للهيئة العربية للتصنيع، وهو مشروع كان حجم رأس ماله وقتها مليار دولار ويعمل به قرابة ١٨ ألف موظف. ونمت علاقته مع كمال أدهم وعدنان خاشقجي. وحين افتتحت الهيئة لها مكتبًا في لندن كانت كبريات شركات السلاح الأوربية تستقبله "وتفيض عليه من كرمها". لكنه يفسر ثروته بطريقة أخرى إذ يقول: "أول صفقة عقدتها

كانت عبارة عن شراء قطعة أرض اقترضت ثمنها من صديق في الخليج. وكان الحظ حليفًا إذ تضاعف ثمن الأرض خمس مرات في عامين". ثم "غادرت مصر في عام ١٩٩١ وأقمت في لندن لأنه حين تكون صاحب نفوذ وسلطان في مصر ثم تترك السلطة فإن الجميع يصبحون أعداء لك.. ولم أعد أستطيع أن أعيش حياة عادية في مصر"

إلى هنا نقف ونبدأ الآن في رصد إشارات وعلامات دخول أشرف مروان على الخط مع تيني رولاند، ثم بالتالي ضد محمد الفايد.

لقد تعرف أشرف مروان في عام ١٩٧١ على تيني رولاند، وجرت بينهما خلال السنوات التالية معاملات عديدة. والذين يعرفون الجانبين: أشرف وتيني يرون أن تيني لا يعتبر أشرف مجرد صديق، ولكنه شريك مميز تضاعفت أهميته بالنسبة له حين كان أشرف يعمل في الهيئة العربية للتصنيع، وقبل أن يغرق أشرف مروان تمامًا في عامل المال والتجارة. وتقول إحدى الروايات أن عرَّاب التعارف بينهما كان مصرفيًا عربيًا بارزًا اشترك معهما في عدة صفقات داخل الشرق الأوسط وأفريقيا. وأن تيني رولاند يرى في

أشرف سياسيًا قديرًا وموثوقًا فيه. خاصة بعد أن أثبت هـذا أثناء أزمة تأميم شركات البترول البريطانية في ليبيـا. وقـد لعب أشرف دورًا واضحًا في هذا وقتهـا. ولكـن أنتـوني بارسونر وكيل وزارة الخارجية البريطانية آنذاك فشل فـي إقناع مجلس الوزراء البريطاني بإدراج هـذا الأمـر علـى جدوله، فتم تأميم الشركة في ليبيا. وكانت البداية مع شـركة Trad Winds التي أنشآها سويًا. وفي عام ١٩٧٨ اشـترى تيني رولاند ٦٠% من أسهم شركة تابعة لهذه الشركة تعمل في الشحن الجوي. واشترت شركة أخرى الـ ٤٠% بقيـة الأسهم.. ثم في عام ١٩٧٩ باعت هذه الشركة نسبتها إلـى فرع " تراد ويندر" في " إيميري" وقد كان أشرف يدير هـذا الفرع فصار بالتالي عضوًا في مجلس الإدارة.

بعد عام حدثت عمليتان في حياة البيـزنس الخـاص بأشرف مروان. ذلك أنه كان يقيم في الطابق الثامن من فندق سونفيدا في مايوركا ودعاه بعض أصدقائه لحفل غداء. وقالوا له أن الفندق معروض للبيع. وأنه كان هناك اتفاق على ذلك في تلك الليلة.. لكن الصفقة فشـلت .. وأبلغـوه بـالثمن "٧ ملايين دولار".. فأعجبه.. وقرر فورًا أن يشتري، ودفع فورًا

شيكًا بالقيمة.. لأنه – على حد قوله – كان يرى أنه يساوي ٢٠ مليون دولار. وفي نفس العام استقال أشرف مروان من مجلس إدارة الشركة التي يعمل بها مع تيني رولاند .ودخل مكانه أحمد قذاف الدم . وهو ما دفع تيني لأن يرفض هذا، لأنه يريد أن تقوم الشركة بإنشاء علاقة مع مؤسسات في الولايات المتحدة، ويخشى أن يتعرض للعراقيل بسبب وجود قذاف الدم.

لكن هذا لم يكن يعني انقطاع علاقة أشرف مروان مع تيني رولاند.. ففي خلال أشهر وفي عام ١٩٨٤ كان أشرف مروان يخضع للتحقيق معه من مؤسسة " جريفز" في بريطانيا، لأنه قام في هذا العام بشراء مجموعة من أسهم شركة "هاوس أوف فرايزر".. في محاولة للالتفاف على القرارات التي تمنع شريكه تيني رولاند من أن يزيد حصته في الشركة.

وفي غضون ذلك حاول أشرف مجددًا التعاون مع تيني. ودخل على الخط لشراء أسهم شركة "ريتشارد دوس" في هاوس أوف فرايزر.. لكن القضاء البريطاني رفض.. وعلق أشرف مروان على هذا بأنه ليس مهتمًا بالحكم.. إذ

يمكنه أن يشتري ما يريد من أسهم من خلال الأسواق.. ولم يحدث هذا.

وقصة هاردوز من جانب آخر، وقبل دخول الفايد على الخط تروى أيضًا بشكل مختلف يفسر إصرار أشرف مروان على أن يخوض الضراع مع تيني رولاند ضد الإخوة الفايد.. فقبل أن يقدم الفايد عرضه – حسب رواية عوني بشير في مجلة المجلة بعدد ١٤١١ – ١٩٨٧- كان أشرف مروان قد اشترى جزءًا من الأسهم – كما أوضحنا من قبل- ولكنه أُتهم بالتآمر لصالح تيني رولاند، وتم التحقيق معه، ولكن لم يثبت عليه شيء.. إلا أنه خرج من هذه العملية وقد حقق صافي ربح قدره ثلاثة ملايين جنيه إسترليني.

وبالتالي فإن أشرف حسب ما يفهم من هذه الرواية كان قد ذاق طعم أرباح هارودز، واكتشف أنها خرافية. ولم يرد أن يتركها لمحمد الفايد ينعم بها. وكان عليه أن يلعب حتى النهاية مع تيني رولاند. خاصة أن هناك من اعتبر دخول أشرف مروان في هذه اللعبة قد جعله يشبه "رمانة القباني" في هذا التوازن الدقيق بين حاملي أسهم "هاوس أوف فرايزر" من ناحية وتيني رولاند من ناحية أخرى.

لكن المثير، وغير واضح الأسباب، هو أن أشـــرف أشرك نفسه وبسرعة في المعركة بين الأخوة الفايـــد وتينـــي رولاند على "هاوس أوف فرايزر". لقد حدث هذا بالفعل بعد أن اشترى الفايد هاردوز وقتها وفي مارس ١٩٨٥، وبينمـــا كان تيني رولاند ينقب في جذور أسرة الملياردير السكندري أرسل أشرف مروان عبر محاميه في لندن "ترا فراذر بريت ويث" خطابًا إلى "هربرت سميث" محامي الفايد، يطلب فيـــه معلومات عن الفايد.

وليس معروفًا لماذا يطلـــب أشـــرف مـــروان هـــذه المعلومات من محامي الفايـــد، إذا كانـــت بالفعـــل تجهـــز للاستخدام ضد الفايد. وهذا أمـــر مثيـــر للاســـتفهام. لكـــن المعروف أن أشرف مروان أمد جريدة الأوبزرفر البريطانية المملوكة لتيني رولاند، والتي كانت تشن حملة ضـــد الفايـــد ببيانات ومعلومات ومستندات عن الإخوة السكندريين. وكمـــا قالت الصحيفة في مارس ١٩٨٥، فإن أشرف أعطاها صورة لطلب تقدم به والد محمد وصلاح وعلى الفايـــد إلـــى قســـم شرطة في الإسكندرية عام ١٩٦١ لاستخراج بطاقة عائلية..

وقد دوِّن في هذا الطلب أنه يعمل مفتشًا بوزارة التربية والتعليم.

لقد كانت هذه معلومات هامة جدًا لصالح تيني رولاند. خاصة أن الملياردير البريطاني لا يمكن أن يصل إلى مثل هذه الأوراق في مصر.. بل إن حصول المصريين عليها لن يكون سهلاً في بلدهم إذا لم يكن يساندهم نفوذ قوي.

غير أن دور أشرف مروان لم يقف عند هذا الحد في ذلك الصراع الساخن.

وقد ترددت في هذا السياق قصص غير موثقة.. من بينها قصة نسبت "الوفد" له فيها دورًا، حين وصلت إلى مصر بعثة تليفزيون أرادت تصوير الحي الذي عاشت فيه أسرة الفايد في الإسكندرية. وقالت الوفد أن أشرف مروان وصل خصيصًا إلى الإسكندرية كي يتابع عمل الفريق التليفزيوني ثم سافر مباشرة إلى لندن.

ورغم أن هذه لم تكن قصة مؤكدة.. إلا أن هناك تفسير آخر لسبب الخلاف بين الجانبين.. بين أشرف مروان ومحمد الفايد.. وهو سببٌ رَوَتْهُ جريدة الوفد في ١٨ أبريل ١٩٨٥، ويعني بوضوح أن الحكاية كلها ليست سوى معركة

على "لقمة عيش كبيرة" والحكاية أن الفايد دخل في نزاع تجاري لصالح ثري عربي أمام شركة يهودية في سويسرا يملكها يهودي، دخل لحسابها في النزاع أشرف مروان.. والبداية كانت عبارة عن خلاف بين الثري العربي والشركة السويسرية حول تكاليف إجراء ديكورات وتأثيث طائرة جامبو يملكها هذا الثري... الذي يرى أن التكاليف لا تزيد على ٩ ملايين دولار بينما الشركة السويسرية "جيت فيشان" وصاحبها "كارل هيرش مان" يطلبان ٤٠ مليون دولار.

الشركة السويسرية تراجعت عن المغالاة فيما تطلبه. وبدأ النزاع يتحول إلى نزاع بين الوسيطين.. كلاهما يبحث لنفسه عن أكبر قدر من الربح في عملية فض النزاع. وقد أرسل أشرف مروان إلى محامي إخوان فايد يطلب مبلغ ٣٤ مليون دولار. وبالتالي وجد الإخوة الفايد أنه يريد من الصفقة ٢٥ مليون دولار.. فاستغلوا عبارات خاصة وردت في خطابه قالوا أنه بها تهديدًا وابتزاز.. ومن هنا دقوا إسفينا بينه وبين الشركة السويسرية فأرسلوا لها ما يعني أن هذا الخطاب يقع تحت طائلة القانون الإنجليزي.. فأسرع محامي

الشركة بإرسال اعتذار إلى الفايد.. وفسدت خطة الـ ٢٥ مليون دولار.

وهناك قصة ثالثة ففي عام ١٩٨٩، وبعد أن انتهت المعركة تمامًا، كشف النائب العمالي في مجلس العموم البريطاني "دال كامبل سافورز" عن تورط أشرف مروان في الفضيحة.. وتقدم إلى المجلس بثلاثة طلبات إحاطة حول هذا الأمر. بني دال كامبل اتهامه بناء على اعتراف مكتوب من بريطاني آخر اسمه كوجهالان.. كان مكلفًا من قبل أشرف مروان بإجراء عمليات تصنت على تليفونات محمد الفايد.. وفي اعترافه أكد كوجهالان أنه اجتمع في يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٨٦ مع أشرف مروان لهذا الغرض. وفي هذا الاجتماع تم الترتيب لعمليات التجسس والتصنت. وفي اجتماع آخر حضره كوجهالان وأشرف وباركهرست. وهو رجل أعمال تربطه علاقة مع أشرف ٠ تم تكليف كوجهالان بالتصنت على رقمين لآل الفايد.. هما ٤٩٣٠٧٧٣١ – ٤٩١٠٤٣٩٥

وقال كوجهالان في اعترافه: لقد تم التجسس بالفعل. وإنني أقر بأن أشرف مروان قد كلفني بهذا بسبب فوز الفايد بصفقة هارودز. وأنه كان يتصل أمامي مع تيني رولاند

مدير شركات لونرو. وأضاف: لقد حصل تيني رولاند على ثلاثة تسجيلات للمكالمات التليفونية للفايد مع مستشارهم القانوني. ولكن أشرف مروان طلب مني أيضًا نسخًا من هذه التسجيلات لأنها تهمه بشكل خاص.

بقى أن نقول أن تكلفة عملية التصنت كانت تصل إلى ٨ آلاف جنيه استرليني في الساعة للخط الواحد، حسب ما جاء في طلب الإحاطة الذي تقدم به دال كامبل.

ورغم تلك الحرب الضروس بين الفايد ومروان، إلا أنه كانت هناك في نفس الوقت ملامح متاعب مشتركة بين الجانبين. وحقيقة الأمر كان أشرف مروان يعاني في نفس الوقت من نفس معاناة محمد الفايد في بريطانيا، وهو عدم قبول المجتمع له هناك باعتباره أجنبيًا. وهو قال عن هذا: "إنهم يقولون عني أنني رجل غامض. ورغم أنني صديق لعدد كبير من رجال الإعلام والصحافة، إلا أنهم يطلقون عليَّ هذه الصفة لأنني أجنبي، ولا أدلي بأحاديث صحفية كثيرة. والإنجليز بطبيعتهم يرون أن كل أجنبي مختلف. وكل مختلف هو غامض"

لكنه تعرض لأزمة من نوع مشابه لتلك التي تعرض لها محمد الفايد. إذ أن قدم عرضًا ذات مرة في منتصف الثمانينيات وبينما صفقة هارودز دائرة، لشراء مجموعة محلات ستور هاوس التي تضم أكثر من ألف معرض وشركة تشمل مجموعة "هابيتات" و "مذر كير" و"هيلزن" و "كونرانزن" و "بريتش هوم ستور".وقيل وقتها كيف تتقدم شركة مثل شركة أشرف مروان التي لا يزيد رأس مالها على خمسة وأربعين مليون جنيه لشراء "ستور هاوس" بألفي جنيه استرليني. وقال هو: "ولم لا؟" ولكن رئيس الشركة التي تقدم أشرف لشرائها السيرتيرانس كونران قال: هذا عرض مضحك كلفني للرد عليه أربعة ملايين جنيه استرليني. لكن أشرف رد وقال: "في مجال العمل الحر كل شيء ممكن"، والهزة الاقتصادية التي ضربت العالم منذ أسابيع جعلت أسهم "ستور هاوس" تنخفض إلى ألف ومائتي مليون جنيه فقط.

ولم يفز أشرف بالصفقة.

لكنه كان قد حقق عدة ضربات في بريطانيا في غضون هذا الوقت، منتصف الثمانينيات وقبله.

إنه مثلاً في يونيو ١٩٨٥ اشترى ٥% من أسهم وكالة الإعلام المالي والرياضي، بعد أن اشترى في بداية نفس العام ٥% من أسهم مجموعة صحف "فليت هولدينجز" التي تملك صحيفة ديلي إكسبريس وعددًا من الصحف البريطانية الأخرى.. ولكنه باع هذه الأسهم بعد فترة قصيرة وحقق بهذا أرباحًا ضخمة.. حوالي ٢ مليون جنيه إسترليني.

وكان مجرد دخول أشرف مروان في صفقة وكالة الإعلام "اكسيتل" قد أدى إلى ارتفاع قيمة السهم من ٢٢٢ بنسا إلى ٢٤٨ بنسًا فورًا.

قبل هذا بعام وفي ١٩٨٤ اشترى أشرف أسهما بثلاثة ملايين جنيه إسترليني في شركة " بولي بوك" التي كان يرأس مجلس إدارتها البريطاني التركي الأصل أصيل نادر. وقد تم الشراء عن طريق شركة يملكها أشرف مسجلة في ولاية جيرسي الأمريكية مع شركائه كمال أدهم وأكرم عجة وصبحي رشدي وفهد وعلى الشبكشي.

وبعد هذا بعامين في عام ١٩٨٦ عرض أشرف مروان مليار دولار مع تيني رولاند على المسئولين في ليبيا لشراء امتيازات النفط الأمريكية في ليبيا، بالاشتراك مع

شركات بترول أوربية مقرها لوكسمبورج.. وكان السبب هو أنه انتهز فرصة تصفية الشركات الأمريكية لأوضعها بعد الغارة الأمريكية على ليبيا عام ١٩٨٦.

هذه الصورة العاجلة توضح لنا موقف الاثنين في بريطانيا، وهي أيضًا توضح الدور المؤثر الذي لعبه أشرف مروان في محاولة لإفساد الصفقة. وهو دور قد يفسر لأسباب لها علاقة بشراكته مع تيني رولاند.. وبأن هذا العلم جزء من توطيد العلاقة .. وربما يفسر أيضًا لأسباب خاصة لها علاقة بالعداء بين الفايد وعدنان خاشقجي، بينما أشرف مروان على علاقة وطيدة بالأخير.. وربما يمكن أن تفسر كذلك لأسباب خاصة بالغيرة.. أو بمنافسات سابقة في الأسواق.. أو لأنه مصري ولا يريد لمصري آخر أن يجتذب منه الأضواء في لندن، رغم أن أشرف مروان لا يحب الأضواء.

إنها احتمالات عديدة، إذا أضفناها إلى بقية التفاصيل، سوف تكون لنا جزءًا من ملامح صورة الصراع بين رجال الأعمال المصريين في الخارج.. وبالتالي كثيرًا من ملامح صورة حياة محمد الفايد..

٦

عملية التجميل

- **جون ميجور.. اركع!**

" كانت أصابع الحكومة تحت ضرس الفايد، وأصابع الفايد تحت ضرس الحكومة.. وكان كل منهما يحاول أن يجعل الآخـــر يصـــرخ ويعلن الاستسلام ".

حسنًا.. لقد أخذت "الهاردوز".. أخذت برج إيفل البريطاني.. أخذت أهرامات لندن.. إنها لك.. ولكن لن تستفيد بها.. لن تحصل على المكانة الاجتماعية التي يمكن أن توفرها هذه الملكية.. لن تسعد بها.. لن تصبح بريطانيًا.. لن نقبلك بيننا. وستبقى أجنبيًا.. تعامل معاملة الغريب.. الذي ننظر له بقرف.. ونتحدث عن أصله وفصله.. ثم نقول إنه ليس منا.

وكأن تلك هي الرسالة التي تلقاها محمد الفايد بعد أن حصل على هارودز. وبعد أن أصبح في غضون سنوات قليلة واحدًا من أغنى أغنياء بريطانيا.. ربما أغنى من الملكة إليزابيث نفسها حسب بعض التقديرات.

إن تلك هي واحدة من أهم سمات المجتمع البريطاني.. لا يقبل أن يضفي صفة من طابع خاص على من لا يريد أن يحصل على هذه الصفة.. إذا لم تكن قد انطبقت عليه المواصفات.. لا يمنح صفة الارستقراطي الفخيم لمن يظن أن أصوله كانت متواضعة.. وهي حالة خلقت جدلا.. وصراعًا.. وصداعًا.

وهي حالة أدت إلى رفض هذه التقاليد – ليس فقط حصول محمد الفايد على الجنسية البريطانية- وإنما أيضًا إلى رفض منحه أية علاقة وثيقة مع المؤسسة الأرستقراطية الحاكمة كما حدث في حالة زواج ابنه عماد الذي لم يتم من الأميرة القتيلة ديانا.

وهي حالة عبَّرت عنها صحيفة هيرالدتربيون في سبتمبر ١٩٩٧ بقولها: "إن قصة الفايد تصور بمنتهى الوضوح التضارب الحادث في المجتمع البريطاني – إنه ليس فقط تضاربًا أو تناقضًا.. وإنما هو صراع بين اقتصاد الإنجاز فيه أهم من أصول العائلة وجذورها.. وبين إمبرطورية قديمة، لا تثق في نفسها، تصارع ضد المهاجرين، الذين نجح أشخاص منهم في تحويل عدد من متاجر البقالة الصغيرة إلى مؤسسة هارودز الضخمة بأسلوب أكثر تفوقًا من أي رجل أعمال بريطاني".

ومن المؤكد أن محمد الفايد لو كان يعيش في أي دولة أخرى غير بريطانيا، لكان قد واجه مصاعب أقل. بل ربما كان إذا عاش في الولايات المتحدة قد حصل على جنسيتها منذ زمن طويل.. حيث هذه هي طبيعة المجتمع..

جمع أشلاء الناس من مختلف أنحاء الدنيا.. وتحويلهم إلى مجموعة من التروس في الماكينة الأمريكية العملاقة.. بدون النظر إلى البلد الذي جاءوا منه.. وبدون التحقيق في جذور الأسرة.. لأن المجتمع نفسه يتكون أصلاً من مجموعة من المجرمين والمساجين والمهاجرين الذين لفظتهم الأرض القديمة.. ورحلتهم إلى الأرض الجديدة حيث نجحوا في خلق هذه الدولة العملاقة.

وربما لو أنه كان يعيش في فرنسا لكان قد عومل معاملة من نوع آخر. بل إنه بالفعل عومل هناك في باريس معاملة من نوع آخر.. حيث اشترى فندق "الريتز".. هذا الفندق الذي يعتبر واحدًا من علامات باريس.. والذي تم فيه العشاء الأخير بين عماد ابن محمد الفايد والأميرة ديانا، قبل أن تنطلق بهما السيارة المرسيدس إلى نفق "ألما".. حيث النهاية... هذا الفندق الذي حافظ محمد الفايد على ملامحه وأعاد ترميمه وأعاد له رونقه وبهاءه.. مما دفع جاك شيراك.. الرئيس الفرنسي الحالي – حين كان عمدة لباريس أن يعلن عن تقديره الخاص لمحمد الفايد.. وأن يتوِّج هذا

التقدير بمنح الفايد وسامًا فرنسيًا خاصًا تعبيرًا عن احترام فرنسا لما قام به.

بريطانيا بهذه المقاييس مختلفة.

فعلى الرغم من أنها تمنح جنسيتها لعدد كبير من المهاجرين.. ورغم أنها يمكن أن تحتوي عددًا من معارضي الدول العربية.. وعددًا آخر من المتطرفين.. ورغم أنها يمكن أن تمنح هؤلاء حق اللجوء السياسي- إن لم يكن الجنسية.. إلا أنها بخلت على هذا الرجل الذي يعيش بها منذ ما يزيد على ثلاثة عقود بالجنسية.. وظلت دائمًا ترفض طلبه هو وإخوته أن يحصلوا عليها.

وأتصور أن هذا ربما يكون نوعًا من نتائج الضغوط التي نجح فيها حتى الآن عدد كبير من منافسي محمد الفايد.. منافسون خلقتهم معركة محلات "هارودز"

لكنني أيضًا أظن أن هذا الرفض الدائم لمنح محمد الفايد الجنسية البريطانية هو نوع من التعبير عن حالة خوف.. خوف من الغموض الذي يكتنف خطط هذا الرجل ... إنهم لا يضمنون ما الذي يمكن أن يفعله.. لو اكتمل له

مثلث السلطة.. مثلث النفوذ.. المكون من أضـــلاع: المـــال، الذكاء، النفوذ السياسي.

وحتى الآن فإن لدى محمد الفايد ضلعين على الأقـــل من أضلاع هذا المثلث... ضلع المال.. وهو وفير للغايـــة.. وضلع الذكاء وهو يفوق التصور إلى حد أن هناك من يصفه بأنه الرجل القادر على ممارسة لعبة السلطة بكفاءة عاليـــة.. بينما لم يكتمل له الضلع الثالث بعد ... لأنه ليس بريطانيًا.

وقد أعطاهم الفايد في مرات كثيرة مؤشرات مختلفة على أنه لو اكتمل له هذا المثلث سوف لا يتمكن أحـــد مـــن إيقاف قطاره العملاق.. فهو بدون الجنسية البريطانية اشترى هارودز، وبدون الجنسية البريطانية أقال وزيرين من حكومة حزب المحافظين، وأثار جدلاً في مجلس العمـــوم، وســـبب أزمة سياسية، وأحرج رئيس الوزراء السابق جون ميجـــور، بل وطالبه باعتذار علني، وجعل مارجريت تاتشر تطلب منه أن يتخذ مجموعة من الإجراءات لدعم الجنيه الاســـترليني، وصادق العائلة المالكة.

فما الذي يمكن أن يفعله هذا الرجل لو حصل علـــى الجنسية البريطانية؟

من يوقفه إذن بعد أن يدخل نادي المواطنين.. بما لهم من حقوق سياسية، لا يمكن أن يوقفه قانون؟

إذن ليبق محمد الفايد أجنبيًا.. ليظل دائمًا في معركة عقيمة.. تبعده تمامًا عن أية معارك أخرى لا يجب أن يفوز بها.

والواقع أن محمد الفايد حين خرج من معركة محلات "هارودز" وشركة "هاوس أوف فريزر" التي تمتلك هذه المحلات.. لم يكن فائزًا تمامًا. فقد كانت المعركة من النوع الضَّروس.. العنيف.. الذي استخدمت فيه كافة أنواع الأسلحة.. ووجهت فيها إلى الأجسام كافة أنواع الأعيرة النارية والقنابل والصواريخ.. وعلى الرغم من أن الفايد حصل على هدفه من المعركة، إلا أنه خرج منها مصابًا إصابة بالغة.. يمكن وصفها بأنها عاهة مستديمة.. ستبقى مثل ندبة في وجهه إلى فترة ليست قصيرة..

وكما اتضح من قبل فإن هذه "الندبة" هي التقرير الذي أصدره مفتشو وزارة التجارة البريطانية، والذي تضمن في ملف ضخم اتهامات قاسية لآل فايد.. وليس لمحمد وحده.. وقال أنهم قدموا ادعاءات غير صحيحة حول ثروتهم

الشخصية ومصدر هذه الثورة ومنشئهم.. في سياق محاولتهم الحصول على صفقة شركة "هاوس أوف فريزر"

والواقع أن هذا التقرير لم تكن له أية قيمة قانونيـــة.. بمعنى أنه لم يتسبب مثلاً في اتخاذ أي نوع من الإجـــراءات ضد الأسرة المصرية القادمة من الأنفوشي إلى لندن.. ولـــم ينتج عنه التحقيق مع محمد وإخوته.. ولم يؤد من أية قضية أو محاكمات أو إجراءات.

لقد خلق التقرير انطباعًا سيئًا عن آل الفايد.. جعلهم مجموعة من "الفهلوية" الذين يخطفون المكاســب ويربحـــون أموالاً بدون تعب.. إنه تقرير كما قلنا حفر "ندبـــة" شـــوهت وجه آل الفايد الذين يحاولون أن يجعلوه يبدو جميلاً.

وقد كان التقرير الضخم قويًا، بحيـــث ازداد عمـــق الندبة في وجه الأسرة.. فصارت حفرة.. حتـــى أن محمـــد الفايد نفسه قال: إن هذا التقرير أدى إلى تدمير سمعة الأسرة، وبالتالي فإنه حرمها من الثمرة المعنوية لنجاحها في السيطرة على الشركات في تاريخ بريطانيا.

إنه بمعنى آخر تقرير لم يمنح أسرة الفايد الفرصـــة كي تنعم بالانتصار.. جعلها تفوز وتجلس فوق مقعد هارودز

بعد أن زرع في وسادة هذا المقعد مئات من الأشواك.. فكان مذاق النصر مُرًا.

وقد حاول محمد الفايد أكثر من مرة إجراء عملية تجميل لوجه الأسرة.. عملية لإزالة الندبة.. التي هي آثار التقرير.. والانطباع السيئ الذي خلفه.. لكن كل العمليات فشلت.. ولم يدخل محمد الفايد مرة واحدة غرفة الجراحة بمشرطة البارع إلا وخرج مكلومًا مهزومًا.

إنه مثلاً، وفي محاولة يائسة، رفع دعوى هذا التقرير أمام محكمة حقوق الإنسان الأوربية.. لكنه خسرها في عام ١٩٩٤.

وفي عملية تجميل أخرى رفع دعاوَى قضائية في بريطانيا لمنع تداول هذا التقرير، باعتباره لم يخضع لأية عملية تدقيق قضائي.. ولكنه أيضًا فشل.

وفي مرة ثالثة حاول ممارسة ضغوط مباشرة على الحكومة كي تسحب التقرير.. ولم ينجح.

وحين فشل في العمليات الجراحية، لجأ إلى المسكنات، هبط إلى الحد الأدنى، إلى أدوية تصور أنها يمكن أن تنجح فيما فشلت فيه العمليات الجراحية.. فراح في كل

مكان يقدم الإسهامات الخيرية، والتبرعات، ويتبني القضـــايا الإنسانية، وينفق على عـــلاج أطفـــال مصـــابين، ويمـــول مؤسسات اجتماعية عديدة.. كانت بينها مؤسستان ترعاهمـــا الأميرة القتيلة ديانا.

ولكن الماكينة البريطانية التي أفشلت له من قبل كـــل العمليات الجراحية لتجميل وجه الأسرة.. راحت من جديـــد تضع سُمًا في الدواء الذي يتجرَّعه.. وهكذا حين تبرع الفايد بمليون دولار لعلاج طفل بريطاني في عام ١٩٩٣ ، راحت الصحف تستخدم هذا الخبر ضد الأسرة.. وتقول أن محمـــد الفايد يريد أن يخدعنا ، ويحاول أن يبدو كما لو أنـــه رجـــل خير.. ولو أنه رجل خير حقًا لماذا يتبرع لأطفال بريطانيـــا ولا يتبرع لأطفال مصر؟

والمعنى الذي أرادت الصحف توصيله واضح.. فهي تريد أن تقول أنه لا يفعل الخير من أجل الخير.. ولكن لأنه ينافق المجتمع البريطاني.. وبدا وكأن الصحف وضعت كمية هائلة من الرمل على الطبق الذي تصور محمد الفايـــد أنـــه شهي.

ولم يصل الرمل إلى فم البريطانيين فقط ولكنه أيضًا وصل إلى مصر. ومن هنا راحت الأسرة تحاول إزالة آثار عدوان الصحافة الأخير.. في بريطانيا.. وفي مصر.. هناك قالوا : "نحن لم نتبرع لهذا الطفل بمليون دولار أمريكي كي يعالج لأنه طفل عادي، ولكن لأنه ابن أحد العاملين في مؤسسة الفايد.. وقد تقرر أن يعالج من خلال إحدى مؤسسات الأسرة الخيرية"

وفي مصر تركوا للكاتب الراحل مصطفي أمين مهمة الترويج لهم. والدفاع عنهم.. خاصة أن مصطفى أمين كانت تربطه علاقة وطيدة بمحمد الفايد.

لقد قال مصطفى أمين في عموده الأشهر " فكرة" في ٢٥ مارس ١٩٩٣ بجريدة الأخبار: " إن لمؤسسة الفايد الخيرية تبرعات عديدة في مصر. وهي تدعم المؤسسات الخيرية، ودور الرعاية الاجتماعية والصحية.. وقد تبرعوا مثلاً بخمسة آلاف كرسي للمعوقين، قدرت قيمتها بحوالي مليون و ٢٠٠ ألف جنيه، وتبرعوا بمائتين وخمسين عصا للمكفوفين تقدر بحوالي ٢٠٠ ألف جنيه، وتبرعوا بأربعين جهازًا لغسيل الكُلى تقدر بحوالي ٦٠٠ ألف جنيه.. وتم

توزيع هذه التبرعات على مواقع متعددة في الجمهورية مثل "ليلة القدر" ودار التحرير للطباعة والنشر، ووزارة الشئون الاجتماعية وجريدة الوفد، وجمعية مسجد أهل التوحيد وجمعية التوفيق والشباب القبطية، وجمعية الطفولة السعيدة ومستشفى دير المحرق بأسيوط، ومستشفيات القوات المسلحة وجامعة الإسكندرية، ومستشفى دمياط العام، ومستشفى أبو الريش.. وغيرها.. بخلاف تبرعات ضحايا الزلزال وتقدر بخمسة ملايين جنيه"

قبل هذه القائمة الطويلة برر مصطفى أمين الهجوم على محمد الفايد بأنه: "يعود إلى حزب أعداء النجاح الذي له فروع في كل مكان. ومن ضحايا هذا الحزب أولاد الفايد في لندن.. الذين اتخذت الصحف في بريطانيا منهم مادة للهجوم على كل ما هو مصري ناجح"

واقع الأمر أن مصطفى أمين كان يقوم في مصر بواحدة من أدوار ماكينة العلاقات العامة الضخمة التي وظفها محمد الفايد في إطار تجرعه لمجموعة من الأدوية المسكنة تحاول إزالة آثار ندبة التقرير. لكنه كان يلعب هذا الدور ــ أي مصطفى أمين ــ من حين لآخر.. في حين خصص

الفايد لهذه المهمة في بريطانيا صحفيًا بريطانيًا عريقًا ومرموقًا هو مايكل كول. الذي صار متحدثًا باسم العائلة.. وعرف كثير من الناس اسمه في مصر حين تردد كثيرًا أثناء علاقة عماد الفايد بالأميرة ديانا وفيما بعد حادث نفق ألما.

ومايكل كول هو الذي خرج للصحافة في عام ١٩٩٥ ليقول: "إن محمد وعلى الفايد يعتزان بأصلهما المصري، وأن طلبهما الحصول على الجنسية البريطانية مرتبط بتسهيل تحركهما أثناء السفر"

هذا التصريح صدر عن المتحدث باسم العائلة حين لقيت أسرة الفايد صدمة جديدة من المؤسسة البريطانية.. بسبب هذه الندبة المحفورة في وجوهم.

وكانت هذه الصدمة عبارة عن رفض جديد لمنح الأخوين محمد وعلى الفايد الجنسية البريطانية.. على الرغم من أن لديهما كل المواصفات والشروط القانونية التي تؤهلهما لهذا. فهما يعيشان في بريطانيا منذ منتصف الستينيات، ويستثمرون ملايين الجنيهات الاسترلينية في بريطانيا، ويوظفون نحو ستة آلاف عامل وموظف بريطاني، وفوق كل هذا فإن لمحمد الفايد ولدين وبنتين يتمتعان

بالجنسية البريطانية، وهو ما ينطبق أيضًا على أولاد علـــى الفايد الثلاثة من زوجته البريطانية.

لقد سبق على الفايد أخاه محمد وتقدم في عام ١٩٩٣ إلى وزارة الداخلية البريطانية بطلب لمنحه الجنسية. ثم تقدم أخوه محمد في العام التالي بطلب مماثل.. وقال إنه هو أيضًا يريد الجنسية البريطانية.. هكذا كان الطلبان منفصلين.. لكن الأخوين تلقيا في وقت واحد ردًا واحدًا من الدولـــة.. وكـــان الرد هو الرفض.. وكان صاحب الـــرد الموحـــد المتماثـــل الكلمات هو نيكولاس بيكر وزير الهجرة البريطاني.

في هذه الفترة، أي في مارس ١٩٩٥ وبعد عـــامين من معركة التبرعات مع الصحافة، قالت مصادر بريطانيـــة لجريدة الشرق الأوسط العربية التي تصدر فـــي لنـــدن: "إن ملف الأخوين الفايد من الحساسية إلى درجة أقنعت مايكـــل هيوارد بتحويله في مناسبتين متتاليتين إلى وزيـــر الهجـــرة، ورفضه بالتالي البت فيه مباشرة وبنفسه، في محاولة منه كي يتجنب الانزلاق إلى مواجهة شخصية مع الفايد"

وهذا الرفض، كان له مغزى واضح، فالفايـــد الـــذي يوصف في بريطانيا بأنه "الرجل البشوش.. العنيد.. الجـــاهز

لخوض كل أنواع المعارك" سوف يظل أسير بطاقة الإقامة التي يضعها في جيبه منذ سنوات طويلة.. وهي ورقة ضعيفة رسميًا.. يمكن خرقها في أي وقت. وهي ورقة لا يمكن بمواصفاتها الضعيفة أن تقضي كل هذه المصالح العملاقة في بريطانيا.. بعكس الجنسية التي لا يمكن التلاعب بها ، ولا يمكن خرقها إلا بقرار من الملكة وحدها.

ومن هنا كان رد محمد الفايد وأخيه عنيفًا.. إذ رأى أن قرار الرفض عمل "تمييزي".. وأصدر بيانًا قال فيه: "هذا قرار غير منصف، وقائم على التحامل. فنحن في بريطانيا منذ سنوات عديدة، ونفذنا في قطاع الأعمال في بريطانيا عمليات استثمارية كبيرة، وقمنا بمبادرات إيجابية في الحياة العامة في البلاد".

ولكن وزارة الهجرة لزمت الصمت. خاصة أنها – قانونًا – لا تعطي سببًا لرفضها منحه طلب الجنسية.. وهي دائمًا تحيط هذه الطلبات بكتمان شديد.. وفي نفس الوقت فإن الطعن في هذا القرار ليس سهلاً بحكم قانون فصل السلطات المعمول به في بريطانيا. وفي نفس السياق فإن هناك من

رأى أن قرار الرفض لا يخلو من اعتبارات عديدة.. اعتبارات لها علاقة بسيرة الأسرة في بريطانيا.

لكن الفايد حاول إقناع الرأي العام بأن الرفض قرار سياسي هو المقصود به.. وبدون أسباب قانونية.. غير أنه لم يتمكن من إثبات هذا في القرار.. لأنه قرار سيادي.. وحسب التفسير القانوني؛ فهو ليس حقًا لمن يطلبه حتى لو كان يقيم في بريطانيا منذ زمن.. ومن هنا فإن من أصدر القرار يتمتع بحماية من نوع خاص لأن القانون يعطيه الحق في ألا يعلن ما هو الأسباب التي دعته إلى رفض الطلب.

وقد وضعت المؤسسة البريطانية يدها على قلبها حين قال محمد الفايد أنه سوف يطعن في القرار.. وقالت الصحف في ذلك الوقت: "إن ما قاله الفايد يثير مخاوف عديدة من أن يفجر فضائح جديدة حين يكشف النقاب عن قصص غير معروفة للرأي العام"

وكان لهذا الانطباع سبب بالتأكيد.

فمنذ تمت معركة "هاردوز" دخل الفايد في صراع مع الحكومة.. وبدا وكأن الاثنين يخوضان معركة "عض الأصابع".. كل منهما يقضم يد الآخر.. دون أن يصرخ وكل

منهما يمضي قُدمًا بأسنانه في إيلام الآخر.. بينما ينتظر من يراقبون الموقف من يصرخ أخيرًا ويعلن الاستسلام.. ومن ينجو أخيرًا ويضحك في النهاية ويعلن له الفوز..

وقبل أن توضع أصابع الفايد تحت ضرس الحكومة البريطانية في المرة الأخيرة، التي رفض فيها طلب الجنسية، كان هو أيضًا قد عض أصابع الحكومة مرتين.. الأولى هو خطط لها والثانية دفع إليها وفاز بها.

الأولى بدأت بدعوة قضائية سنترك أمرها الآن.. ولكننا سنصل إلى نتيجتها.. والنتيجة هي هزَّة سياسية.. واستقالة وزيرين في الحكومة.. لأن الفايد- الأب – قرر أن يعض أصابع الحكومة بقوة.. وأعلن في نهاية عام ١٩٩٣ أن هناك نوابًا في مجلس العموم قبلوا منه أموالاً كي يقوموا بطرح أسئلة معينة في البرلمان البريطاني.

وحدثت ضجة.. وسقط الوزير الأول، فهو عضو في مجلس العموم وثبتت إدانته.. ثم سقط الثاني.. وعلى حد تعبير الكاتب الصحفي محمود عطا الله فإن " مجلس العموم اهتز.. عمالاً ومحافظين وأحرارًا على السواء، وتحول انتصار جون ميجور في أيرلندا الشمالية – وهو أكبر إنجاز

قومي بريطاني منذ أن ربح تشرشل الحرب العالمية الثانية- تحول فورًا إلى شيءٍ منسيٍ لتغرق بريطانيا كلها في تفاصيل الصراع بين هارودز و ١٠ دواننج ستريت".

ولم يكتف الفايد بأن يضع إصبعًا واحدًا لجون ميجور – رئيس حزب المحافظين ورئيس الحكومة – تحت أسنانه، بل وضع أصابع أخرى.. وقضم عدة عقلات منها، إذ راح يتهم وزير شئون الخزانة جوناثان إيتكنز بأنه نزل في فندق "ريتز" الضخم في باريس.. الذي يملكه الفايد وقبل أن يسدد الفاتورة رجل أعمال خليجي، تربطه بالوزير علاقة عمل سابقة.

وكانت الضربة قوية.. إذ راح الهجوم الذي أطلقه الفايد يجد له صدى في الأوساط السياسية والصحف.. وكان أن كتب أحدهم يطالب جون ميجور بأن يطرح على نائب مجلس العموم عددًا من الأسئلة على ما حدث في فندق "ريتز" راحت أيضًا تتناول موضوعات أخرى حول ثروة الوزير وأملاكه وسلوكه المالي.. وهي أسئلة بدت وكأنها تشكك في الذمة المالية للوزير. وهي هامة جدًا لأنها تشرح لنا القصة بطريقة مختلفة.

ولنقرأ بعض هذه الأسئلة حتى نعرف حجم الأزمة التي سببها محمد الفايد:ـــ

١- إذا كان مرتبك من البرلمان في عام ١٩٩٠ بلغ ٢٦,٧٠١ ألف جنيه استرليني، وبجانبه مرتب زوجتك التي تعمل سكرتيرة، ودخلك الآخر الذي لا يزيد على عشرة آلاف جنيه استرليني.. فكيف استطعت أن تسدد قرضًا قدره ٤٠٠ ألف جنيه استرليني، دون أن تبيع شقتك في لندن؟

٢- ما هي نوعية اللقاءات التي تمت بينك وبين وزراء الصحة لصالح شركة رجل الأعمال الخليجي جرير – اسمها " يو- إس – تو – باكو " وكيف عبرت لهم عن اهتمامك بأمر هذه الشركة؟

٣- وهو سؤال خاص بأمور أخرى.. ما هي صلتك بشركة "بلاتوه" للمناجم بعد أن أصبحت وزيرًا، ولماذا ذكرت في قسم مصالح الأعضاء في مجلس العموم أنك استقلت منها في بداية يوليو ١٩٩٠، عندما دخلت الحكومة، بالرغم من أنك استقلت فقط بعد ذلك... وبصفتك وزيرًا لماذا حضرت اجتماعات هذه الشركة؟

٤- بالنسبة للخطابات التي وقَّعت عليها لصالح محمد الفايد وأرسلتها للوزراء، أي من هذه الخطابات كتبتها أنت؟ وأيها كتبها رجل الأعمال الخليجي "جرير"؟ وأيها كتبها المحامون التابعون لمحمد الفايد؟

٥- لماذا تكلمت في البرلمان نيابة عن محمد الفايد ومن أجل مصالحه، رغم أنك تعلم أن تقرير الـ Dit – وزارة الصناعة والتجارة – الصادر في عام ١٩٨٨ كان ضده؟ وقد نشر هذا في جريدة الأوبزرفر يوم ٣٠ مارس١٩٨٩؟

٦- هل اعترفت بكل المبالغ التي حصلت عليها من رجل الأعمال الخليجي وعملائه في قسم مصالح الأعضاء بمجلس العموم.. وإن لم تكن قد اعترفت.. فلماذا لم تعترف؟

٧- عندما التقيت بالوزراء نيابة عن محمد الفايد كيف فسرت لهم ذلك، وكيف بررت لهم اهتمامك بشئونه؟

٨- حين قرأت فاتورة إقامتك في فندق "ريتز" وبعد أول أسبوع لك في باريس اتضح أنك .. أنت وزوجتك.. كنتما تتناولان أطعمة ومشروبات في المطعم بـ ٢٥٠ جنيها استرلينا يوميًا.. حسب أسعار عام ١٩٨٧.. ولمدة

أسبوع..فلماذا لم تتناول طعامك خارج الفندق ولو لمرة واحدة.. لاسيما أنكما في كل يوم تطلبان إفطار الشمبانيا الخاص بالفندق.. كما اتضح من فاتورة البار الصغير في غرفتك أنك كنت تتناول كميات من أعلى أنواع الكحوليات؟

٩- هل كتبت خطاب شكر للفايد على هذا، وعلى استضافته لك، أم كنت تشعر أنه فقط يرد لك ديناً عليه؟

١٠- كم مُنتَجًا من محلات هارودز وصلت إليك بدون مقابل في الأعوام الماضية؟

١١٢- لقد قضيت أنت وزوجتك عطلات صيفية في ضيافة الفايد في فندق "ريتز" عام ١٩٨٧، ثم في مقره بمقاطعة "بالنجاون" في اسكتلندا عام ١٩٨٩، وقبل ذلك سافرت إلى نيو أورليانز وإسبن في عطلات أخرى مع زوجتك... فمن الذي دفع قيمة هذه العطلات؟

لقد بدا من هذه الأسئلة، وغيرها أن الفايد سبب ارتباكًا في الحياة السياسية في بريطانيا.. وقد كانت البداية من نوع غريب.

بداية في تاكسي.. إذ ركب هذا التاكسي نائبان في مجلس العموم.. وراحا يتكلمان.. والسائق يسمعهما..

ويتحدثان عن محمد الفايد كثيرًا.. ويسُبان ويشتُمان.. ويقولان أنه يحاول أن يشتري طريقه بالفلوس.. وكان أن أبلغ السائق محمد الفايد بهذا.. فرفع ضدهما دعوى قضائية أنهما هاجماه ظلمًا وعدوانًا.. وكان هذان النائبان من حزب المحافظين الذي يرأسه جون ميجور.

لكن جون ميجور لم يغفر لمحمد الفايد هذا الإحراج الذي سببه له.. وكان أن قرر رد القلم للفايد.. وكان أن تطور الموضوع فصار إحراجًا لجون ميجور رئيس الوزراء البريطاني نفسه.. حتى وصل الأمر بمحمد الفايد أن طلب منه اعتذارًا علنيًا..

ففي خطوة غير مسبوقة، وفي عام ١٩٩٤ ألقى جون ميجور أمام مجلس العموم البريطاني بقنبلة.. قنبلة جعلت المواجهة بين المؤسسة البريطانية والفايد تصل إلى ذروة غير مسبوقة.. بل غير متوقعة... وكانت القنبلة هي إعلان ميجور إنه بنفسه تلقى عبر طرف ثالث.. وسيط.. طلبًا من الفايد بسحب تقرير وزارة التجارة والصناعة عن أسرته.

إن الفايد – حسب رواية جون ميجور – يحاول إجراء عملية تجميل جديدة للندبة التي تشوه وجه العائلة.

وقد وجدها ميجور فرصة كي يلقى بالقفاز في وجه محمد الفايد.. حين وجه اتهامًا له.. وقال: "لقد قررت تسليم نسخة مسجلة من شريط المكالمة الهاتفية التي تمت معي في هذا الأمر إلى المدعي العام، كي يرى ما إذا كان طلب الفايد يقع تحت بند الابتزاز"

ولكن لماذا الابتزاز؟

الإجابة على لسان جون ميجور، إذ قال: "إن المقابل الذي عرضه محمد الفايد عبر الوسيط هو "الامتناع عن كشف أسماء نواب ووزراء محافظين تقاضوا منه أموالاً ورشاوَى"

وبدا رئيس الوزراء البريطاني كالحمل الوديع.. حين قال: "لقد رفضت إجراء أية ترتيبات معه" ورد على الوسيط- حسب ما قال ميجور نفسه – موضحًا: " إنني سوف يتعذر عليَّ مقابلة محمد الفايد في مثل هذه الظروف، وإنه إذا كانت هناك مخالفات من بعض الوزراء كما يقول الفايد؛ فإنه لن يقدم أية تسويات تضر بسمعة حكومته".

وأرسل جون ميجور مذكرة بهذا الموضوع إلى المدعي العام. لكن المدعي العام رأى أنه لا توجد أية شبهات

للابتزاز. وبالتالي لا يوجد مبرر لكي تتم ملاحقة محمد الفايد قضائيًا.

وقبل أن يحدث هذا كان الفايد قد أصدر بيانًا قال فيه: "إنني لم أسعَ مطلقًا إلى ابتزاز جون ميجور أو الحكومة. لأنني أدرك تمامًا عبثية طلب المستحيل.. إنني فقط سعيت للقاء ميجور مدفوعًا بشعور بالغبن والظلم طوال فترة تحقيق الوزارة في صفقة هارودز التي تمت في عام ١٩٨٧.. وإنني أنبه نائب مجلس العموم بيتر تابس بأنني سأقاضيه لو ردَّد تهمة الابتزاز هذه خارج البرلمان"

بدا إذن أنه قوي للغاية.. وأنه يملك أوراق اللعبة كلها تقريبًا.

وبدا إذن أن القنبلة التي ألقاها جون ميجور لم تكن منزوعة الفتيل، وتحولت إلى قطعة من الحديد لم تصل حتى إلى أقدام محمد الفايد.. وبدا المليارديير المصري مؤثرًا للغاية.. إذ راحت الدوائر تدور.. وراحت الحكومة تحاول لملمة الخسائر وجمع الشتات.

فوفــقًا لصحف لندن في هذا التوقيت فــإن وزيــر الداخلية حين ذاك – مايكل هيوارد- رضخ فعــلاً لتحقيــق داخلي حول شائعات تقول إنه تلقَّى رشاوى هو الآخر.

ومن جانبه رفض الوزير في وزارة التجــارة نيــل هاملتون- الذي طرحت الصحف عليه الأسئلة الاثني عشر- أن يستقيل، وقاوم حتى النهاية.. ولكنه رضخ في النهاية إلى أن يوقع استقالة وصفتها الصحف بأنها "إقالة" بعد أن اجتمــع به وزير التجارة مايكل هيزلتاين ومسئول الانضباط النيــابي الحزبي ريتشارد رايدر.. وواجهوه بتهم جديدة، وبأنه أخفــى مصالح تجارية خاصة به.

واضطر جون ميجور لأن يبرر الاستقالة قائلاً: "لقد قبلت استقالة هاملتون لأنني شعرت أن التهم التي يواجههــا عنصر معطل لسير العمل الحكومي".

وأضاف أنه: "في بيان مكافحة الغمز واللمز حــول سلوك الوزراء وكبار المسئولين، شُكلت هيئة برئاسة قــاضٍ في الاستئناف هو اللورد نولان.. ستفوض بمهــام التحقيــق وإجراء التطهير"

أزمة مثل هذه لم تكن لتمر بالطبع من حزب العمال.. الذي كان معارضًا في ذلك الوقت.. واعتبر أن ما يحدث هو "عملية مغلفة لتبرئة ساحة الوزراء المتهمين والمتستر عليهم ومن ثم على الحكومة"

ولم يَشأ محمد الفايد إلا أن يضع مشهدًا ختاميًا لهذه الجولة.. حاصدًا الانتصار الأخير فيها.. فأرسل خطابًا إلى جريدة "التايمس".. يقول فيه معقبًا على اتهامات جون ميجور: "أعتقد أن لدى رئيس الوزراء عملاً واحدًا على الأقل يتحتم عليه أن يوليه اهتمامه قبل أن يودع عام ١٩٩٤. فقد استخدم مستر ميجور سلطاته في توجيه ادعاء بذيء بالابتزاز ضدي. وعلى إثر ذلك انتهز عدد من أعضاء البرلمان الفرصة، ووجهوا ليَ ادعاءات أخرى، لا أساس لها أيضًا من الصحة في حماية الحصانة البرلمانية ".

"وفي يوم ٢٥ نوفمبر، أصدر المدعي العام البريطاني بيانًا مذاعًا، أوضح فيه أنني لم أرتكب أية مخالفات يعاقب عليها القانون الجنائي، وقد صدر هذا البيان على ضوء التقرير الذي تلقاه من بوليس العاصمة، وأضاف البيان أن المسألة لم تعد في حاجة للمزيد من التحقيق ".

" وتوقعت بطبعية الحال أن ينتهز رئيس الوزراء أول فرصة لوضع الأمور في نصابها الصحيح، وفي نفس المكان الذي بدأت منه أصلاً وهو مجلس العموم البريطاني.. لكني لم أجد غير الصمت ".

"وفي يوم ١٢ ديسمبر كتب المحامون الذين يتولون الدفاع عني إلى رئيس مجلس العموم مشيرين إلى واجب رئيس الوزراء الواضح تجاه المجلس.. والذي يتلخص في سحب الآثار المؤلمة التي سببتها هذه الادعاءات التي لقيت رواجًا كبيرًا "

وفي اليوم التالي رفض مجلس العموم الأخذ بالمناقشات المقنعة التي دارت بين النواب، وجاء الرفض من أربعة أسطر.. عندما أشار رئيس المجلس إلى قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٨٩. والذي يوفر حرية التعبير عن الرأى في البرلمان. وأنا أؤيد تمامًا حرية الرأي. ولكني أعتقد أنه لم يحدث أن أحدًا من المواطنين تعرض لمثل هذا الوصف خلال القرن الحالي. وإذا كان لدى رئيس الوزراء أي شيء يماثل الاستشارة القانونية السليمة لأدرك أن تهمة الابتزاز ليست ورادة وبالرغم من هذا فقد أجاب عن أحد الأسئلة التي

وجهت إليه بتهور واندفاع تسبب في الإضرار بمصالحي إلى أقصى مدى".

إنني أعتقد، وبصورة لا أحيد عنها، أن مستر ميجور رجل عادي، شريف. ولهذا فإنني أدعوه إلى أن يضع الآن خطًا واضحًا لهذه المسألة عن طريق التصحيح بالنتائج التي أمكن التوصل إليها وبمنتهى الوضوح.. ثم وضع هذه النتائج في صندوق البريد"

" وفي الوقت نفسه فإنني أعتقد أن اعتذارًا من جانبه سيكون أيضًا أمرًا طيبًا... أما إذا رفض هذا الاعتذار.. فقد يؤمن البعض بأنه ليس عادلاً وليس شريفًا.. وقد يجاهرون بهذا الرأي بلا حماية من جانب المزايا البرلمانية "

صديقكم المخلص: محمد الفايد.. رئيس مجلس إدارة هارودز انتهي الخطاب..

وهي نهاية وضعت حدًا للمعركة.. جولة واحدة فقط منها. جولة كسبها محمد الفايد حتى النهاية. كسبها وطالب جون ميجور بالركوع أمامه.. وبالاعتذار.. ورغم أن جون ميجور لم يفعل هذا إلا أنه قد قام به معنويًا.. حين التزم الصمت.. بعد أن خسر وزيرين.. ونسيَ الناس انتصاره

السياسي في أيرلندا الشمالية.. واهتز الحزب.. ومنح العمال وتوني بلير.. الذي كان معارضًا في ذلك الوقت فرصة للهجوم..

ونهاية من هذا النوع من المؤكد أنها أضافت عدوًا جديدًا لمحمد الفايد.. وجعلت هناك ما يشبه الاتفاق الضمني على كراهيته داخل المؤسسة البريطانية.. ومن هنا كان لابد أن توضع في طريقة خوازيق جديدة.. خوازيق تعطل عملية التجميل التي يريد أن يجريها. لتبقى الندبة في وجهه فترة أطول..

وعملية التجميل الجديدة كانت توحي بأن محمد الفايد يتخذ اتجاهًا تصاعديًا في إجراءاته لمحو آثار التقرير.. إنه في البداية اتجه إلى العلاقات العامة، ثم في خطوة تالية عين صحفيًا هامًا ليتحدث باسمه، وفي نفس الوقت قام بأعمال خيرية عديدة، ثم في مرحلة أخرى اتجه إلى الضغط على الحكومة.. لكنه في هذه المرة قرر أن تكون جراحة التجميل من نوع أكثر تأثيرًا.. قرر أن يدخل الأسلحة من جانب آخر.. هو جانب الإعلام والصحافة.

وحين دخل من هذا الجانب كانت وسيلته أيضًا هي المال.. المال الذي استخدمه في الأعمال الخيرية، واستخدمه في رشوة نواب مجلس العموم، والذي سوف يستخدمه فيما بعد في إبهار ديانا.. الأميرة المقتولة.. إنه أيضًا الوسيلة التي قرر أن يسيطر بها على حصة في الإعلام البريطاني.

لقد كان هدفه هو أن يوظف هذه الحصة في سبيل خدمة أهداف معاركه العديدة.. من ضرب المنافسين وطعن الحكومة إلى الحصول على الجنسية وإلغاء التقرير.. أو على الأقل توظيف هذه الورقة.. ورقة الإعلام والصحافة.. في اتجاه إحداث توازن مع أوراق اللعب التي تملكها الأطراف الأخرى.

وكانت الخطوة الأولى في أغسطس ١٩٩٤.

وكان هدف الخطوة الأولى هو شراء "صحيفة توداي" التي يملكها الملياردير اليهودي روبرت ماردوخ.. وجرت المفاوضات بالفعل.. وجهز محمد الفايد قلمه الفخيم في النهاية ليوقع على أوراق الاتفاق.. لكن روبرت ما ردوخ تراجع تمامًا قبل ساعات من إتمام التوقيع.. وطارت الصفقة.. وطارت معها آمال الفايد في الوصول إلى هدفه.

لكنه لم ييأس..

وفي أكتوبر ١٩٩٥ كرر الفايد المحاولة..

وكان هدف المحاولة هو شراء إذاعة معروفة في لندن اسمها " ال. بي. سي".وهي إذاعة مملوكة لوكالة "رويتر" من خلال شركة "لندن نيوز راديو" .. وجرت المفاوضات طوال ثلاثة أسابيع.. ووافق الفايد سرًا على أن يدفع ٤ ملايين جنيه استرليني مقابل شراء هذه الإذاعة.. في نفس الوقت الذي كان قد قرر فيه إحياء الإذاعة بشكل كامل.. وقرر أن يعين الصحفي المرموق أندرونيل رئيس تحرير "صنداي تايمز" السابق رئيسًا لمجلس إدارة الإذاعة.. وأن يدعو إعلاميين معروفين لتقديم برامج الإذاعة والإسهام فيها.

إن أندرونيل نفسه قد تدخل كي يدافع عن محمد الفايد. فوصف خطته لإصلاح الإذاعة بأنها كانت تشبه خطته مع محلات هارودز أي أنه يشتري مؤسسة في طريقها للاضمحلال ويحولها إلى أحسن محطة في بريطانيا.

وعلى الرغم من أن رويتر كانت تبحث منذ فترة طويلة عن مشتر "للندن راديو" .. أو للدقة كانت تفتش..

لأنها لم تجد مشتريًا بسرعة.. إلا أن المحادثات التي سبقت الصفقة أوقفت فجأة.. ورفضت رويتر أن توضح السبب. بل لم تعط أي تعليق.. ومرة أخرى أغمد محمد الفايد قلمه الفخيم في جيبه المملوء بدفاتر الشيكات قبل أن يوقع على الصفقة بساعات.

إنها جولة جديدة في معركة عض الأصابع.

وفي هذه المرة كانت أصابعه هو تحت ضرس الحكومة.

ذلك أنه هو نفسه قال هذا، وتحدث عن شكوكه في أن حزب المحافظين هو الذي يقف وراء إحباط الصفقة لمنعه من السيطرة على أى منبر إعلامي في بريطانيا. وقال: إن حزب المحافظين يخشى أن أستخدم المحطة كمنبر في فضح الفساد داخل الحزب.. إن الحزب الحاكم يملك القدرة على القيام بأي شيء من وراء الستار.. وواضح أنهم يريدون منعي من امتلاك أي منبر إعلامي لكنني كنت أنوي أن تكون المحطة صوتًا مستقلاً يتولَّى إدارتها صحفيون ذوو مستوى مهني رفيع دون أن أمارس أي تأثير عليهم.

هل كان السر وراء ذلك هو حقًا الخوف من أن يستغل الفايد الإذاعة في معركة حصوله على الجنسية، أم أن السبب الحقيقي هو أن أحدًا من نوع خاص لا يريد للإمبراطورية أن تحصل على جناح جديد.. جناح أشد قوة وأكبر تأثيرًا هو جناح الإعلام؟

يبدو أن السببين معًا، كانا يقفان وراء ما حدث.

ومن هنا فإن محمد الفايد جعل استراتيجيته التالية هي أن ينطلق في الاتجاهين في وقت واحد.

هكذا راح يناضل قضائيًا من أجل الحصول على الجنسية.. وراح أيضًا يناضل من أجل الإمبراطورية الإعلامية.

كان رفض رويتر إتمام صفقة المحطة الإذاعية.. قد حدث في نوفمبر ١٩٩٥ وفي خلال ثلاثة أشهر.. أي في نوفمبر ١٩٩٦ كان محمد الفايد قد حقق انتصارًا ضعيفًا حين نجح في شراء مجلة كرتون ضاحكة اسمها "بنش".. وهي للطرافة مجلة عريقة صدرت قبل أكثر من قرن ونصف قرن.. ثم توقفت في عام ١٩٩٢.. وجاء الفايد ليدفع نصف مليون جنيه استرليني لكي تصدر من جديد.

وخرج آخر رئيس تحرير للمجلة ليرحب بالصفقة ويقول: "هذه خطوة جيدة.. فقد توقفنا قبل ثلاث سنوات لأنه صدرت عدة مجلات مضحكة ليست مجبرة على أن تكون محترمة"

لكن هذا النجاح الضعيف لم ينس الفايد صفقاته الإعلامية التي فشلت من قبل.. وراح ينتقم بطريقة قانونية من روبرت ماردوخ الملياردير اليهودي الذي كان يملك صحيفة "توداي" ورفض أن يبيع الصحيفة للفايد مقابل ٤ ملايين جنيه استرليني.. في نفس الوقت الذي وافق على أن يدفع ٤٢ مليون جنيه استرليني كتعويضات للعاملين في الجريدة.. ثم راح يصدر بياناً يقول فيه أنه لم يُتم الصفقة لأنه لم يجد مشتريًا جديًا.. فالتقط الفايد الخيط ورفع دعوى قضائية يطلب فيها تعويضًا من روبرت ماردوخ.

وفي المحاكم أيضًا كان الفايد يمضي في طريق معركة الجنسية. كانت القضية قد وقفت عند حد رفض وزارة الداخلية أن تمنحه الجنسية.. لكنه راح فيما بعد يطلب ــ عن طرق جيش من المحامين من المحكمة البريطانية العليا ــ الإذن بأن يقاضي وزير الداخلية.. لأنه لم يعطه هو

وأخاه الجنسية.. وقالا في عريضة الدعوى: "إن هذا القرار ينتهك "الحق الطبيعي لنا" ووافق بوب لويل قاضي المحكمة على إعطائهما الإذن.. لأن "الادعاء يثير قضية قابلة للجدل".. ولها أهمية على الصعيد الدستوري"

لكن القاضي ولسبب غامض، رفض في نفس الوقت أن تُجرى هذه القضية في وقت عاجل.

لكن هذا الأمر لا يمنعنا وقبل أن ندخل في المرحلة التالية من هذه المعركة، أن نقرأ ما قاله المحامي الفايد مايكل بيلون في أوراق الدعوى، كي يحصل على هذا الحكم.

لقد قال: "إن انتهاك حقهما الطبيعي كان مفضوحًا. لأن وزير الداخلية لم يقدم أي تعليل للرفض.. ومن الصعب أن نرى ظلمًا أكبر من اتخاذ قرار بهذا المقدار من الحساسية في شكل يترك المتضرر منه وهو يجهل تمامًا مصيره، ويحرمه من فرصة تلافي ذلك المصير"

وقال: "لقد ألقى هذا الرفض ــ غير المبرر ــ بظلال من الشك على سُمعة محمد وعلى الفايد.. خاصة أن هناك رأيًا يرى أن الطلب رُفض لأسباب سياسية، و هو أمر

مرفوض قانونًا. ولا يمكن تلافي القضية عن طريق حائط الصدّ الذي أقامته الحكومة"

وفي ٢٧ فبراير ١٩٩٦، ورغم أن الخطوة الأولى كانت توحي بعكس ذلك، خسر محمد الفايد جولة جديدة في المعركة.. والخسارة هذه المرة جاءت مثل انتصار المرة الماضية.. عبارة عن حكم قضائي.. صادر عن المحكمة العليا البريطانية.. وقال القاضي أنه يوافق على قرار وزير الداخلية: " على الرغم من أنه لا يتصف بالعدالة.. إلا أن الوزير لم يكن ملزمًا بإعطاء سبب لقرار الرفض الذي اتخذه..." و"الآن القرار في يد وزير الداخلية الذي يمكن أن يعيد النظر فيما إذا كان ينبغي أن يعطي الأخوين الفايد تلميحًا ما عن سبب الرفض". ولكن الوزير لم يفعل بالطبع.

ووجد الفايد رغم الخسارة في ذلك الحكم فرصة كي يقول: "لقد حصلت على انتصار معنوي" .. ثم راح يعيد على أسماع البريطانيين إنجازاته كي يبرر لهم حقه في الحصول على الجنسية.. وقال: "إنني أوظف ستة آلاف عامل، ولدىَّ أنا وأخي سبعة أطفال بريطانيين، وقد دفعت في العام الماضي ٣ ملايين جنيه استرليني كضرائب دخل، و٢٢

مليون جنيه استرليني قيمة ضرائب دفعتها شركاتي الخاصة".. ثم مضى بعد ذلك يحول قضيته إلى قضية من النوع العام.. راح يبحث عن تعاطف من المواطنين العاديين: "سوف أواصل جهودي بلا كلل، حتى أكشف الحقيقة كما فعلت في قضايا حكومية أخرى"

إنها نفس الخطة التي مضى ينفذها فيما بعد ذلك بعدة أشهر، حين حقق هذه المرة انتصارًا بعد أن حكمت محكمة الاستئناف لصالحه فقال: "إنني مصمم على النضال حتى النهاية في هذه المعركة.. إنني أفخر بمصريتي.. ولكني لأسباب تجارية وعائلية أريد الحصول عليها معاملة تتنافى مع قواعد القانون في بريطانيا"

والذي حدث في هذه المرة أن القاضي اللورد وولف رئيس محكمة الاستئناف أمر بأن يسود القانون في التعامل مع محمد الفايد وأخيه.. وقال: "إن الشقيقين لم يلقيا معاملة عادلة لأنهما لم يحصلا على أسباب الرفض"

ونزل الحكم كالصاعقة في وزارة الداخلية.. فاضطر متحدث رسمي باسمها لأن يعلن أنها سوف تعرض القضية برمتها أمام الجهة القضائية الأعلى.. أي مجلس اللوردات.

لكن محمد الفايد راح يستثمر هذا النجاح في حملة دعائية كبرى.. وقبل أن يصدر بياناً يحقق في هذا الاستثمار قال: "إنني مصمم على النضال.. وسأواصل معركتي بدعم من أبناء الشعب البريطاني العاديين، الذين أعربوا عن تأييدهم لي من خلال مئات الرسائل التي تلقيتها، وتعبر عن الاستياء من المعاملة التي لقيتها أنا وأخي".

ولكن ماذا قال بيان الفايد هذه المرة؟

"إن العدالة البريطانية انتصرت لي ولأخي علِي بعد طول معاناة"

" لقد عشت في بريطانيا تحت مظلة القانون ما يقرب من ٣٠ عامًا، لم أرتكب خلالها أي شيء، حتى مخالفة إيقاف السيارة في المحل الممنوع... لم أفعلها.. وقبل أن أشتري متاجر هارودز عملت بجدٍ لإحضار تعاقدات تساوي مليارات الجنيهات للشركات البريطانية.. وإنني آمل أن يسمح لنا وزير الداخلية بحمل الجنسية البريطانية بدون إجراءات أخرى"

" إنني لا أعارض أن تلجأ وزارة الداخلية إلى مجلس اللوردات، ولكن قرار محكمة الاستئناف يكفي ويحقق العدالة بأسمي معانيها"

وفي نفس الوقت الذي كان فيه محمد الفايد يحاول تهدئة الأمور.. كان أيضًا في بيانة يوحي بتهديد.. ويعلن أنه قد يؤلب على وزارة الداخلية عشرات من القضايا الأخرى.. إذ قال: "إن قرار محكمة الاستئناف يعتبر تاريخيًا، لصالح كثير من الناس الذين دخلوا في دهاليز الصمت حين رفضت إدارة الهجرة منحهم الجنسية البريطانية، ولم تتوافر لهم إماكنية الاستئناف أمام المحاكم"

إنه مرة جديدة يضع أصابع الحكومة تحت ضرسه.

وفي نفس الوقت الذي كان يخوض فيه هذا الصراع، كان الفايد مصرًا على أن ينفذ عملية التجميل الأهم من خلال بناء الإمبراطورية الإعلامية الكبرى.. الموازية لإمبراطورية هارودز. ولكن محاولاته لا تتوقف.. وما أن يخرج من صفقة فاشلة حتى يحاول أن يجعل نتيجة الصفقة التالية عكس ذلك.

لقد كان سلاحه هذه المرة عبارة عن شركة اسمها "ليبرتي بيليشنج".. أي مؤسسة الحرية للنشر.. وقد أسس هذه الشركة في نوفمبر ١٩٩٥.. وخسرت كما قلنا صفقة راديو لندن، ومن قبلها صفقة جريدة "توداي" ومن قبلهما صفقة جريدة "ديلي إكسبريس".. إلا أنها في مارس ١٩٩٦ حاولت أن تحقق لصاحبها.. أي محمد الفايد.. نصرًا من نوع خاص.. نصرًا على غريمه السابق تيني رولاند.

كان الهدف هذه المرة هو جريدة "الأوبزرفر" المعروفة، إنها نفس الجريدة التي تجرأت من قبل، ونشرت ملخصًا لتقرير وزارة التجارة والصناعة عن محمد الفايد.. وهي في نفس الوقت كانت مملوكة لتيني رولاند.. ثم باعها لشركة "جارديان ميديا جروب" التي تصدر صحيفة جارديان المشهورة.. منذ ثلاث سنوات.. ولكن هذا الشراء لم يوقف خسائر الأوبزرفر.

ومن هنا دخل محمد الفايد في لحظة خاصة على الخط.. أراد أن يحقق انتقاما فريدًا من غريمه السابق.. وعرض شراء الجريدة بـ ١٥ مليون جنيه استرليني.. ثم ما لبث أن رفع العرض إلى ٢٠ مليون جنيه استرليني.. لكن

الكواليس الخلفية التي تلقت الخبر راحت تلعب.. ورفض المُلاك بيع الجريدة المرموقة.. وخرجت كاميلا نيكولز الناطقة باسم شركة "جارديان ميديا جروب" لتقول: "إن أوبزرفر ليست للبيع.. سواء لمحمد الفايد أو لغيره"

وعض أحدهم على أصابع البطل المغامر العنيد..

وبدا في خلال شهرين فقط أنه مُصر تمامًا على أن يُكوِّن الإمبراطورية الإعلامية.. وسُمح له في مايو ١٩٩٦ أن يحقق نصرًا ضعيفًا.. حين تم الإعلان عن أنه اشترى من شركة "جولدن روز كوميو نياكشينز" – أي الوردة الذهبية للاتصالات راديو "فيفا".. من خلال شركته "ليبرتي ببليشينج" وكان الثمن هو ٣ ملايين جنيه استرليني.

ودعم ريتشارد ويلتي المدير التنفيذي للشركة البائعة موقف الفايد قائلاً: "هؤلاء الناس يسعون لتطوير مصالح إعلامية"

وهذا الراديو الذي اشتراه الفايد.. لم يكن عريقًا. بل ربما كان هو الذي أسسه من الباطن.. إذ لم يكن عمر المحطة يزيد على عام.. وحصلت الشركة البائعة على ترخيص به في يوليو ١٩٩٥.. وظلت طوال عام تقدم مزيجًا

من الأحاديث الموجهة للمرأة، وأخبارًا وبرامج عن الشئون الجارية والموسيقى المعاصرة.. ثم قيل أن المحطة تواجه مشاكل.. إذ لم تحصل على إعلانات.. ولم يستمع لها أكثر من مائة ألف فرد، لضعف الموجة التي تبث عليها..

ولكن الفايد اشترى..

إنها خطوة في الطريق.. مشرط يمكن أن يستخدم في العملية الجراحية للتجميل.. ولكن.. هل سعى العنيد.. المصري.. إلى ما هو أبعد من الإمبراطورية الإعلامية؟ هل أراد تخطي هذه المساحة التي كان يلعب فيها بماله لتحقيق أغراضه؟.. هل قرر أن يتوقف عن تحريك السياسيين كعرائس الماريونت من خلف الستار بفلوسه، وقرر أن يظهر على المسرح بنفسه؟

ربما..

ذلك أن الصحف البريطانية تحدثت في عام ١٩٩٦ عن أنه في طريقة لخطوة جديدة..

ففي غضون أيام من إتمام صفقة راديو "فيفا" كانت صحيفة "اندبندنت" تتحدث عن أن محمد الفايد ينوي إنشاء حزب سياسي تحت اسم "حزب الإصلاح".. وأنه خصص

لهذا الغرض ٢٣ مليون جنيه استرليني لدعم مرشحي الحزب في الانتخابات العامة التي جرت.. وفاز بها فيما بعد حـــزب العمال بقيادة توني بلير.. وقالت الصحيفة أن الحزب يطالب بلائحة حقوق.. وبحرية المعلومـــات.. واســـتبدال مجلـــس اللوردات بهيئة منتخبة .. وتقليص الإنفـــاق علـــى العائلـــة المالكة.. وإجراء استفتاء على الحكم الذاتي لاسكتلندا وويلـــز وإعادة الخدمات للقطاع العام.

الناطق باسم محمد الفايد خرج إلى الســـاحة فـــورًا لينفي الخبر.. ولكنه نفي كان أقرب للتأكيد.. نفـــي أكـــد أن محمد الفايد كان يفكر بالفعل.. إذ أنه من جانـــب قـــال: "أن الصحيفة كتبت تقريرها بدون الرجـــوع إلـــى الفايـــد أو أي شخص يعمل لديه.. وربما استند التقرير إلى مذكرة داخليـــة في "مؤسسة الفايد" ومن جانب آخر اعتـــرف بوجـــود هـــذه المذكرة.. وقال: "إن هذه المذكرة تضمنت بعض الإصلاحات التي يمكن أن تترك تأثيرًا مفيدًا في الطريقة التي يدار بهـــا البلد سياسيًا"

وبدا وكأن الناطق باسم الفايد يشير من بعيد لجـــون ميجور وحزبه بعصا، يمكن أن تستخدم في وقت كـــان فيـــه

حزب المحافظين يعاني تمامًا من منافسة حادة من حزب العمال.. إذ قال: "نحن على استعداد لدعم الحركة من أجل الإصلاح الدستوري، ونأمل في إنشاء صندوق قريبًا لهذا الغرض". ثم مضى يؤكد نفس الاتجاه: "لقد تحدث الفايد خلال الأشهر الماضية إلى عدد كبير من الأشخاص، بينهم سياسيون كبار وأكاديميون وصحفيون ورؤساء تحرير عن الحاجة إلى إصلاح دستوري، ونتيجة لذلك ساهم عدد من الأشخاص في تقديم أفكارهم خطيًا حول هذا الموضوع، ويبدو أن هذه المذكرة التي استند إليها تقرير إيندبندنت واحدة من هذه الإسهامات.. لكنها بالضرورة لا تمثل تفكير الفايد"

ثم استغل الناطق باسم محمد الفايد هذا الموقف لصالح من يعمل عنده.. وقال: "على الرغم من أن الآراء السياسية للفايد تأثرت بتجاربه الشخصية خلال السنوات العشر الماضية فإن بعض الإصلاحات التي تطرقت إليها المذكرة تنبع من إيمان راسخ بالحرية السياسية واحترام حقوق الفرد".

لقد كانت عجلة كل عمليات التجميل التي ينفذها محمد الفايد تجري بسرعة.. ولكنها كانت تفشل مرة.. وتنجح

مرة. وكان نجاحها ضعيفاً.. لم يسفر عن إزالة آثار الندبة التي حفرها تقرير وزارة الصناعة والتجارة في وجهه .

وكان لابد أن يبحث عن حل ناجح.

حل نهائي.

كان لابد أن يسحب أصابعه من تحت ضرس الحكومة.

بل وبدا في سعيه لهذا الحل وكأنه يريد أن يضع كافة أصابع الدولة تحت ضرسه هو.

وكانت عملية التجميل الكبرى.. الهدف العظيم.. الأميرة ديانا.. العملية التي كان يمكن أن تضع القصر الملكي كله في جيب سرواله الصغير.. العملية التي تابعها العالم كله.

٧

الابن الضائع

- أرجوك... قولي نعم!

" هذا الرجل الذي تحتضنه الأميرة، وتدفن رأسها في صـــدره، وتلـــف ساقيها حوله.. عربـــي.. مصـــري الأب.. سعود الأم".

ما الذي يمكن أن يكون عماد الفايد قد قاله من عبارات حب للأميرة العنيدة، الوردة، المحبوبة، العاشقة، المفضوحة، الشهيرة جدًا... الليدي ديانا سبنسر؟ هل كان مثلاً يستخدم مفردات من القاموس الشعبي المصري حول "البيض الحيارى والسمر العذارى"؟ أم أنه كان يوظف في علاقته تلك ــ التي فاجأ بها بريطانيا ــ عبارات عشق عصرية؟ أم أنه دلف إلى قلب الأميرة من خلال مفاتيح حصل عليها عبر حياته الطويلة في المجتمع البارد، المجتمع الإنجليزي، الذي أنهك وأتعب وأرهق قلب ديانا طوال ٣٦ عامًا، هي كل عمرها، وخاصة في السنوات الست عشرة الأخيرة التي عاشتها في قصور العائلة المالكة البريطانية؟

إن أحدًا من الصحفيين الذين طاردوا البلاي بوى المصري والأميرة المميزة خلال الشهرين الأخيرين من حياتهما قبل أن يُقتلا في حادث غامض جدًا، أنهى قصة الحب الوليدة، لم يعثر على نص حواري دار بين الاثنين، ولم يهتم أحد من هؤلاء الصحفيين سوى بالتقاط الصور في الحادث.. وكان على الصور أن تقول لقارئ الصحف البريطانية ــ الشعبية والرصينة ــ ومن بعدها كافة صحف

العالم، كل شيء عما يحدث بين ابن محمد الفايد.. والأميرة أم الملك القادم في بريطانيا.

والواقع أن الصور كانت تقول الكثير، لكنني أظن أن عماد الفايد.. ذلك الدنجوان الذي لم نكن نسمع عنه من قبل في مصر أي شيء – وضع كل ما في داخله من تركيبات اجتماعية مختلفة وثقافات متعددة أمام قلب الأميرة... فجعله هذا نموذجًا مميزًا وبارعًا ومختلفًا.. يختلف تمامًا عن كل النماذج التي عرفتها من قبل.. بداية من الأمير البارد ولي عهد بريطانيا.. الأمير تشارلز.. ومرورًا بمدرب الفروسية الخائن جيمس هوايت الذي أحبته الأميرة ثم باع قصة هذا الحب في كتاب حين كشفت الحكاية.. ونهاية بالرياضي المرموق في باكستان عمران خان.

لقد بدا عماد الفايد من نوع آخر لم يصادف الأميرة.. جان.. جذاب.. حلو الحديث.. ورائع المذاق.. به سحر مصر.. وشعبية الأنفوشي.. وبدوية السعودية التي تنتمي لها أمه.. وقوة الأب.. وعصرية الغرب.. وعشق الفن.. والرغبة الحادة في المغامرة.. وفوق كل هذا نفوذ المال والشهرة اللذان يتمتع بهما بالوراثة..

إنه إذن أمام الأميرة فارسٌ مختلفٌ بكل معنى الكلمة.. يعرف كيف يضع يده على أوتار قلبها.. ويعزف لحن الحب الساخن الممزوج بسحر من نوع خاص افتقدته كثيرًا.. ويعبر عن هذا بكل حنان وهو يطبع قبلة على جسم الأميرة في لحظات سعيدة على متن يخت الأب الملياردير الكبير محمد الفايد.. هذه القُبلة التي كان ينتظرها أحد قناصة الصور الذين تعرفهم الصحافة باسم "بابارتزي".. فالتقطها.. وباعها بنحو نصف مليون دولار لعدد من صحف بريطانيا وفرنسا.. فخرجت الصحف وهي تجذب أنظار قرائها بمانشيت ساخن وملتهب هو "القُبلة" أو "The Kiss ".

هذه "القبلة" التي بدا في النهاية أن عماد دفع ثمنها غاليًا، حين راح ضحية حادث نفق باريس. " قبلة " لم تكن هي أول ولا آخر " قبلة " في حياة عماد الفايد.. ولم تكن هي أول ولا آخر " قبلة " في حياة الليدي ديانا سبنسر.. ولكنها كانت " قبلة " بها كل مميزات طبيعة الشخصين اللذين تبادلاها.. " قبلة " هزت الرأي العام.. وهزت العرش البريطاني.. ولفتت أنظار العالم كله.. " قبلة " جمعت بين الشرق والغرب.. " قبلة " مزجت بين الإسلام والمسيحية

عبر ديان جسدي صاحبيها.. " قبلة " رفضـــها الكثيـــرون.. ورأت فيها أجهزة المخابرات البريطانية مؤشرًا هامًا وخطيرًا يجب أن يتم وأدها، وألا تتكرر، وألا تترك تداعياتها تمضي في طريقها..

إنها " القبلة " القاتلة.

" القبلة التي بدلاً من أن تورث في القلبين والجسدين والروحين نشوة خاصـــة.. أورثتهمـــا العـــداء والكراهيـــة والغضب الشديد الذي أفضى إلى نهاية مأساوية لحياة الأميرة العنيدة، والمختلفة، ونهاية أشد مأساوية في أحد فصول تاريخ عائلة محمد الفايد.

" القبلة " التي لطمت مؤسسة الأسرة بقوة، بعد كـــل هذه الانتصارات التي حققتها، وبعد أن كان الأب محمد الفايد يطمع في أن تتحول – أي هذه القبلة – إلى انتصار آخـــر.. حاسم وقوي.. في صراعه مع هـــذا المجتمـــع البريطـــاني القاسي.

فلقد كان عماد أمل أبيه.. حلمه الأكبر في التواصل.. أمنيته الأعظم في أن يكمل المسيرة.. في أن يبنـــي طوابـــق أخرى فوق برج الإمبراطورية التي أثارت- ولـــم تـــزل –

الجدل .. ليس في بريطانيا وحدها.. وإنما في كـل أنحـاء العالم.

هل كان هذا الحلم موجودًا داخل قلب محمـد الفايـد حين ولد عماد الفايد في منتصف الخمسينيات؟.. ربما.. لكن المؤكد أن محمد الفايد كان في ذلك الوقت مغامرًا مصريًا بلا إمبراطورية.. حين تزوج سميرة خاشقجي في عـام ١٩٥٤ وأنجب منها عماد، ثم طلقها في عام ١٩٥٦.

وحتى هذه اللحظة لم تُكشف تفاصيل عـن الاتفـاق الذي تم بموجبه الطلاق من هذا الزواج القصير.. لكن المؤكد أن سميرة كانت لها حياة من نوع خاص.. حياة ترف.. حياة مرتبطة بمزاجها المتقلب.. ومن هنا فإن الطفل الرضيع لـم يبق معها فترة طويلة.. وانتقل عماد.. أو "دودي" كما كـان يحب أن يطلق عليه تدليلاً.. إلى حضانة أبيه.. وبدلاً من أن ينتقل من دولة إلى أخرى مع أمه التي لا تهدأ من الترحـال بين حين وآخر من دولة إلى غيرها.. نشأ في الإسـكندرية.. حيث تلقى تعلميه الأول في كلية سان مارك، هذه المدرسـة المعروفة التي كان يرعاها الفاتيكان، ويلتحق بها أبناء كبـار أغنياء المدينة الجميلة، الذين لم يتمكنوا من اللحـاق بركـب

التعليم الفاخر في كلية فيكتوريا، مدرسة الأمراء وأبناء العظام.

ولم يعانِ عماد في طفولته من أية متاعب يمكن أن يعاني منها طفل مصري في تلك الفترة.. إذ كانت الأسرة قد بدأت فعليًا في الانتقال إلى مرحلة الثراء.. وهكذا كان هو الطفل الوحيد في كلية سان مارك الذي يمتلك سيارة.. وكان أيضًا الوحيد – تقريبًا – الذي يعيش في قصر.

هذا القصر، الذي تتسع مساحته إلى قرابة ٣٥ ألف متر، ويقع في منطقة فيكتوريا، كان يملكه ثري يوناني اسمه " البورتا".. غادر مصر حين بدأت الثورة تطبيق سياسة التأميمات.. فاشترته عائلة الفايد.. واستغلت الفرصة.. وظلت تملكه حتى اليوم.

إننا يمكن أن نتخيل ما هي النفس الصغيرة التي يمكن أن تنشأ في مكان مثل هذا.. حديقة هي قطعة من الجمال.. بها عراقة مميزة.. وحمام سباحة عظيم..ونافورة من رخام نادر.. وتمثالان من النحاس بالحجم الطبيعي للفرعون رمسيس الثاني.. ومجموعة أخرى من تماثيل رمز الحب والجمال الإغريقي فينوس..

هذا المكان الذي هجرته العائلة، وفضلت عليه مجموعة من الفيللات في منطقة الفردوس بالعجمي، والذي يتابعه فقط مدير أعمال الأسرة من حين لآخر، ويزوره صلاح شقيق محمد الفايد مرة أو مرتين كل عام، هذا المكان يمكن أن يخلق طفلاً أميرًا.. ولكنه من عجبٍ – ورغم كل مظاهر الثراء الفاحش الذي تتمتع به عائلته – كان ذا طبيعة مميزة.. تجعله يصادق ابن الجنايني الذي يرعى حديقة القصر.

هذا الصديق سبق عماد إلى الموت بسبع سنوات.. كان اسمه سعيد الصناديلي.. وكان يخرج مع عماد وأصدقائه من أبناء الأغنياء إلى حفلات الأفلام في سينما مترو وسينما أمير.. ثم يعود معه إلى القصر حيث يمارس عماد عشقه للسينما ويعيد أمام أصحابه تمثيل هذا الفيلم الذي تابعوه منذ لحظات.

وقد لاحظ محمد الفايد هذا الحب المتبادل بين ابنه عماد وصديقه سعيد.. ودعم هذه العلاقة.. حتى أنه كان يشتري للاثنين في بعض الأحيان زوجين متماثلين من الأحذية.. وهذا الحب المتبادل هو الذي دفع سعيد فيما بعد –

وحين تزوج وأنجب- لأن يطلق اسم عماد صديقه على ابنه الأول.. هذا الحب هو الذي كان يجعل عماد يصطحب صديقه – إذا ما جاء في رحلة إلى مصر- في نزهة بالسيارة من فيكتوريا إلى سان مارك مستعيدًا ذكريات الطفولة.. وهذا الحب هو الذي دفع سعيد إلى أن يسافر إلى بريطانيا حيث عمل هناك، وحيث ساعده عماد إلى أن قرر سعيد العودة إلى مصر حيث مات.

إن عماد ابن العائلة التي عاشت في البداية في حي الأنفوشي، لم ينس جذوره.. ولكن نسيان هذه الجذور أو عدم نسيانها لم تكن له علاقة على الإطلاق بالتحول الذي حدث في حياة أبيه.. وبالتالي حدث في حياته حين انتقل الأب إلى بريطانيا.. وانتقل معه عماد.. حيث درس في الأكاديمية العسكرية البريطانية – كلية هيرست – وهي المعهد المتميز الذي يحرص الأثرياء على إلحاق أبنائهم به.

ولقد عمل لبعض الوقت في سفارة دولة الإمارات في لندن، إلا أنه سرعان ما ترك هذا العمل، وأسس شركة للإنتاج الفني أنتجت الفيلم الحائز على جائزة الأوسكار "عربات النار".. وقد أنفق على هذا الفيلم ثلاثة ملايين دولار.

لكن عماد الفايد ظل شابًا وسيمًا وجذابًا لـــه بعـــض القصص، وعديد من الحكايات في أوساط من نوع خـــاص، ولم يصعد إلى الأحداث أبدًا إلا حين عرف الجميع قصته مع ديانا.. حتى حين كان أبوه غارقًا في معاركه العديـــدة مـــع الحكومة ومنافسيه في بريطانيا.. لم يُسمع له صوت.

ثم صار نجم العالم، الذي يقلب الجميع في كل أوراق ملفه، حين تعرَّف على الأميرة القتيلة.

إن الأميرة لم تكن غريبة عن أسرة الفايد.. بل ربما تكون قد قابلت عماد من قبل أكثر من مرة.. خاصة أن محمد الفايد كانت له قنوات مختلفة مع القصر الملكي.. ليس فقـــط باعتبار أنه مورِّد الخضروات والفواكه للقصر.. ولكن لأن له علاقة صداقة مع الأمير تشارلز والملكة إليزابيث الثانية.. بل إنه فيما بعد كان أحد مموِّلي الأعمال الخيرية للأميرة ديانا.

وفوق كل هذا كان والد ديانا نفسه صـــديقًا لمحمـــد الفايد، على حد قول المتحدث باسم ديانا: "إنها صداقة قديمة، وكان والد ديانا صديقًا حميمًا لمحمد الفايـــد" وبـــدوره قـــال المتحدث باسم محمد الفايد عقب إعلان هذا التعـــارف: " إن الضجة المثارة الآن لا معنى لها، لأن الأميرة تعرف الفايـــد

منذ سنوات طويلة، وهو يرأس اثنتين من المؤسسات الخيرية التي ترعاها"

ومن المؤكد أن الأميرة لم تحسب أن بداية التعارف سوف تثير كل هذه الأقاويل، التي راحت الصحف تروجها، بعد التقاط صور الأجازة التي قضتها في الريفيرا مع محمد الفايد وابنه.. لاسيما أنها قبل أن تخرج إلى هذه الرحلة أعطت خبرًا عنها لمطلقها الأمير تشارلز وأمه الملكة إليزابيث.

ويبدو أنها كانت فعلاً في حاجة لهذه الأجازة.. ويبدو أنها كانت تفكر فيما هو أبعد.. ويبدو أنها كانت تهرب من بريطانيا.. ويبدو أن تلك الأجازة التي أمضتها كانت نوعًا من الفرار من ضغوط معينة.. ضغوط صعبة.. إذ قالت في غضون هذا للصحف وهي تبرر اصطحاب ولديها معها ــ وأحدهما سوف يصبح ملكًا ــ في هذه الرحلة: " ولداي يحثانني باستمرار على ترك بريطانيا، ويقولان إنه الحل الوحيد.. وربما عليَّ أن أفعل ذلك، إنهما يريدان أن أعيش في الخارج.. لأنني عندما أعيش في لندن أتعرض للأذى

باستمرار.. وترصُّد كل تحركـــاتي.. والآن أُجبـــر علـــى الرحيل".

لقد كان يمكن أن يفهم هذا التصريح في إطار عادي. ولكنه أعلن في نفس الوقت الذي كانت فيه صور الأميرة مع عماد تذاع في كل لحظة.. وخاصة أنها هـــي التـــي ألهبـــت الحماس والخيال، وحركت الأذهان إلى اتجاهات بعيدة حـــين قالت: "سوف أدلي ببيان خلال أسبوعين سيضع حـــدًا لكـــل هذا... ستكون مفاجأة "

إنها إحدى عشرة كلمة أثارت مئات مـــن علامـــات الاستفهام حول ذلك الأمر الهام " الذي سيضع حدًا لكل هذا " وتنتويه الأميرة.. حتى أن دار "وليام هيل" للمراهنات راحت تجمع الأموال من المراهنين.. وهي تضع أمامهم خيـــارات مختلفة حول ما سوف تعلنه الأميرة.. وكانـــت هنـــاك عـــدة احتمالات.. فإما أن الأميرة سوف تهاجر خارج بريطانيا .. وإما أنها سوف تتزوج.. وإما إنها سوف تتحول إلى الرهبنة.

الواقع أن حياة ديانا بالفعل كانت في حاجة إلـــى أن تضع حدًا فاصلاً.. كان يجب أن تقف.. لا يمكـــن أن تبقـــى هكذا إلى الأبد في هذه الطاحونـــة التـــي لا تتوقـــف عـــن

الصراع مع العائلة المالكة والصحافة.. لقد بدت وكأنها أُرهقت- أُنهكت للدقة – من كل هذا الذي يحدث.. انهارت بجسدها الرقيق، وروحها الأشد رقة من ١٦عامًا بدأت حين تزوجت الأمير تشارلز في حفل أسطوري شهده كل العالم أمام شاشات التليفزيون.

إن هذه الأعوام الستة عشر تبدو أمامنا الآن وكأنها مضت بنفس سرعة السيارة التي ماتت فيها ديانا.. ولكن المؤكد أنها كانت سنوات بطيئة بطء السلحفاة.. ثقيلة ثقل القطار.. على قلب الأميرة.. وقد بدت هي في أيامها الأخيرة، وقبل أن تعلن عن بيانها الذي لم يعلن عنه أبدًا.. لكن الموت سبقه.. بدت وكأنها تريد أن تتخلص من كل هذا.. العبء والهم والضغط والألم.

وقد راجعت من جانبي كافة حوارات ديانا الأخيرة كي أستشرف الحالة التي كانت عليها.. الحالة التي يمكن أن تكون دافعًا لها كي ترتمي في أحضان عماد الفايد.. الحالة التي تجعل منه خيارها الأخير.. وليس الرهينة أو الهجرة.. كما كانت توقعات المراهنات.

وقد وجدت في حوارها مع شبكة "بي. بـــي. ســـي" أفضل وأهم تعبير عن هذه الحالة.. فهو حوار يلخص حياتها ويوحي بأفكارها حول المستقبل.. ويعبر بوضوح عن حالـــة "العناد" التي التبستها، وعن حالة الكراهية التي تكنها للنظـــام الملكي وللأسرة المالكة، وعن حالة الرغبة في التخلص مـــن كل هذا.

لقد سئلت في البداية سؤالاً عاد بنا إلى البداية.. بداية كل ذلك: "هل شعرت بالخوف من مسئولياتك الجديدة حـــين تزوجت.. هل خفت من مستقبلك كملكة؟" ولقد قالت مجيبـــة: "لا.. لم أخف.. واعتبرت هذا تحديًا.. لكـــن الصـــحافة لـــم ترحمني.. لا أنا ولا تشارلز.. ثم اقتصر موقـــف الصـــحافة عليَّ وحدي.. عندئذ شعرت بالخوف "

هذه الصحافة هي التي كتبت بعد أن اكتشفت الأميرة خيانة الأمير أنها تعاني من مرض نفسي.. وأنها تؤلم نفسها بالجروح.. وقد اعترفت ديانا بهذا فعلاً.. " كنت أفعـــل هـــذا طالبة النجدة، كنت أريد أن أحصل على بعـــض الاهتمـــام.. كنت أجرح ساقي وذراعي.. كي أستطيع إذا اهتم أحد بي أن أقوم بدوري كزوجة وكأم"

لقد اكتشفت ديانا في عام ١٩٨٦ أن زوجها كان يخونها مع هذه السيدة الشمطاء كاميلا باركر.. لكنها لم تستطع أن تفعل شيئًا.. وقد اكتشفت هذا بغريزتها... غريزة المرأة.. الغريزة التي لا تكذب أبدًا.. وأدركت وقتها أن ما يحدث بين كاميلا وزوجها ليس علاقة.. بل حب مجنون.. وفيما بعد قالت أن هذه العلاقة هي سبب انهيار زواجها "الزواج لا يحتمل سوى فردين رجل وامرأة.. ويستحيل أن يستمر إذا كان لثلاثة "

كانت تريد أن تصرخ، كانت تريد أن يشاركها الناس ما يحدث.. ومن هنا أوحت لأحد الكتاب بأن يؤلف كتابًا عنها.. كي تتحسن صورتها.. وكي تكذب الشائعات التي تقول أن الأميرة تتصرف بغرابة لأنها مجنونة.. "أنا إنسانة قوية جدًا، وأعلم أن قوتي تسبب مشاكل في المحيط الذي أعيش فيه "

هذا المحيط الذي تقصده ديانا هو القصر الملكي وأفراده، الذي بلغت كراهيته لها وكراهيتها له حد تدبير الحملات الصحفية الهادفة إلى إبعاد مشاعر الناس عن الأميرة.. التي صار لقبها في الشارع "ملكة القلوب"..

وخاصة أنها رغم الفضائح تقوم بأعمال عديدة تلفت الأنظار بعيدًا عما يقوم به مطلقها الأمير تشارلز.

ومن هنا فهي تعتقد أن الأسرة المالكة هي التي دبرت الحملة التي أذيعت فيها المكالمات التليفونية مع شخص اسمه "جيمس جيلبي"، بل ووصل الأمر حدَّ ادعاء أنها كانت تعاكس شخصًا اسمه "أوليفر هود"، ثم بلغ السيل الزُّبى حين استغل عشيقها "جميس هويت" كل هذه الأجواء ونشر قصتها معه في كتاب.

ولكن لماذا يدبر القصر ضدك هذه الحملة؟ هكذا سألتها شبكة "بي. بي. سي" وقد أجابت: "لأنني أمثل لهم مشكلة، لأنني لا أصمت على ما يفعلون.. وسوف أناضل ضدهم حتى النهاية.. إنني أريد أن أكون ملكة لقلوب الناس وأعلم أن هناك كثيرين لا يرغبون في أن أصبح ملكة.. كثيرين داخل العائلة المالكة.. لأنني أتصرف من قلبي وليس من عقلي.. لأني لا أتبع القواعد المفروضة عليهم.. إنهم يرون فيَّ تهديدًا لهم بسبب قوتي "

هذه هي الأميرة التي ذهبت إلى عماد الفايد.

ولكن عماد لم يكن مثل أي شخص آخر عرفته الأميرة.. ليس كأي بطل قصة عابرة سوف تمر بعد أن تعصرها الصحافة عصرًا.. ليس حدوته ناقصة.. إنه حكاية كاملة.. مليئة بالأوصاف والخيالات.. إنه ابن محمد الفايد أولا.. إنه ابن الأسطورة التي لم تزل بريطانيا تحاربها.. إنه مصري من رعايا دولة كانت تستعمرها بريطانيا حين كانت لا تغرب عنها الشمس.. إنه مسلم.. وهذه وحدها مصيبة كافية كي لا تمر القصة ببساطة.

وفوق كل هذا فإنه لم يكن عاشقًا من نوع خاص. وإنما هو بطل بدا للجميع وكأنه يتجه إلى ما هو أبعد من هذا في حياة الأميرة. إنه يريد أن يغير صفته في أيامها المقبلة.. لا يريد أن يبقى فقط "صديقًا في صحبة صيف".. إنه فيما يبدو يريد أن يتزوج.. وفيما يبدو أيضًا فإن الأميرة سوف تستجيب لهذا. وإلا فما معنى هذا الذي سوف تعلنه خلال أسبوعين وتقول عنه أنه "سوف يضع حدًا لكل هذا ".

وليس بعيدًا على صحافة التقطت صورًا لأحضان وقبلات بين عماد والأميرة أن تلتقط مثل هذه المؤشرات. وليس بعيدًا على أجهزة ترصد كل صغيرة وكبيرة في حياة

ديانا – لأنها أم الملك القادم– أن تعرف أن هناك أمرًا مصيريًا سوف يتم.. لاسيما أن العجلة درات بسرعة.. ولاسيما أن الأطراف ليست بعيدة عن العيون.. ولاسيما أن العواطف الصادقة لا يمكن أن تخفيها أية أقنعة.. مهما كان سُمك أي قناع.

ولقد فُضحت العواطف الصادقة ديانا وعماد.

رأوهما معًا يذهبان إلى عرَّافة في جنوب لندن، في طائرة هليكوبتر، ثم يخرجان من بيت العرَّافة يبتسمان.

ونقلوا عن أبيه محمد الفايد أنه يعلم بعلاقتهما ويباركها.

ومن المؤكد أنهم عرفوا قصة الخاتم الذي طلب عماد الفايد من أحد كبار تجار المجوهرات في لندن صناعته، بشكل فخيم، وغير مسبوق، وبتكلفة تصل إلى ٢٢٠ ألف دولار.. إن هذا الخاتم الذي كُشفت قصته بعد الموت وقيل أن عماد أعطاه لديانا في فندق "ريتز" قبل أن يركبا المرسيدس الملعونة لا يمكن أن يكون هدية عادية.. بل هو كما قالت بعض التحليلات خاتم خطبة.. خاصة أن عماد صممه بنفسه. وطلب من صانعه أن يكتب عليه جملة مليئة بالرجاء.. من

ثلاث كلمات إنجليزية هي: "Please say yes " وهي جملة معناها واضح: "أرجوكِ.. قولي نعم ".

وقد ذهب هذا الخاتم أخيرًا مع بقية متعلقات الأميرة إلى أختها.

من المؤكد أيضًا أن العيون – عيون الصحافة والأجهزة – رصدت هذه الجلسة العائلية التي جمعت ديانا مع بعض أعضاء أسرة الفايد قبل الحادث بساعات ، حيث تناولوا القهوة مع قطع الكرواسون.. لقد بدت الجلسة وكأنها جلسة تعارف.

وفيما بعد قالت " جُمانة " أخت عماد من أمه، أنه أخبرها بأن علاقته مع ديانا جديَّة، وأنه يريد أن يتم التعارف بينهما، وأنها – أي جُمانة – كانت تتطلع لمثل هذا اللقاء.

بل إن حسن ياسين أحد أقارب عماد الفايد ألقى بقنبلة بعد موته حين صرح لجريدة الهير الدتربيون الأمريكية بأن عماد أخبره بأنه سوف يتزوجها " لقد قال لي هذا قبل الحادث بيوم واحد، وكنا في غاية السعادة من أجله – وشعرت أنه وجد نفسه فيها.. وأنها وجدت نفسها فيه ".

وفي نفس الجريدة قال مايكل كول المتحدث باسم عائلة الفايد: "لقد أمضى معها عطلة جميلة. وتناولت مع عائلته الإفطار.. وهي لم تشعر بمثل هذه الألفة العائلية من قبل أبدًا.. وكان عماد يحب الأميرة.. وهي تعشق صحبته "

إن الصب تفضحه عيونه. فما بالنا بأميرة وابن ملياردير تتابعهما كل الأنظار وهما مقبلان على مثل هذا الأمر.. الزواج.

ولكن ما هي المشكلة.. هو أعزب.. وهي مطلقة.. فليتزوجا؟

واقع الأمر أن هناك مصيبة، وليست مشكلة فحسب.. لأنه لا يمكن تجريد الاثنين في هاتين الصفتين فقط. لا يمكن التعامل معهما على أنهما شخصان عاديان... وزواجهما أمر خطير بمقاييس الدولة والمجتمع في بريطانيا.. التي إذا قبلت أن يتم زواج ديانا من أي شخص بريطاني، فإنها لا يمكن أن تقبل أبدًا زواج شخص بمواصفات عماد منها.

لماذا؟

لأسباب كثيرة.

فالأميرة في البروتوكول الملكي ليست مطلقة الأمير تشارلز ولي العهد.. وإنما هي أم ابنه الأمير ويليام.. ويليام ذلك الفتى المراهق الذي يشغل بال من هن في نفس سنه في بريطانيا شخصية هامة جدًا.. يبدو وكأنه سيكون الملك القادم.. لأنه من المتوقع أن يتنازل أبوه عن العرش له... ومن هنا فإن هناك خطورة حقيقية على العرش من هذا الزوج.. لأن الزواج بين ديانا وعماد قد يؤدي إلى الإنجاب. وهي إذا أنجبت من الممكن أن تخلق مشكلة أن يكون شقيق الملك القادم مسلمًا.. وهذا غير مقبول هناك. ليس فقط لأن هذا مثير للجدل في مجتمع مسيحي.. ولكن أيضًا لأن الملك بحكم موقعه هو راعي الكنيسة في بريطانيا.. والكنيسة سلطة هامة وقوية وأساسية في الدولة.

ولكي نعرف أهمية هذا فإننا نشير إلى أن اللقب الذي يطلق على ملك بريطانيا لقب لا يقتصر على الصفة السياسية وإنما على الصفة الدينية.. فهو "ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية والكومنولث وحامي الإيمان".. فكيف يكون حامي الإيمان المسيحي له شقيق مسلم؟

ولقد عبرت إحدى الصحف البريطانية عن هذا المعنى حين دللت ساخرة على مخاطر هذا الزواج وهي تقول: "إن هذا الزواج سوف يؤدي إلى ميلاد طفلة اسمها كليوباترا، وطفل اسمه محمد"

وفيما بعد الحادث، وفي مصر، قالها بوضوح الكاتب أنيس منصور.. وهو يحلل أبعاد موت الاثنين في عموده اليومي بالأهرام: "اغتالها المخابرات البريطانية.. إنقاذاً للعرش. فلم يحدث أن استطاع إنسان أن يزلزل عرش الأسرة المالكة كما فعلت ديانا.. لقد أقسمت الأميرة الجميلة أن تهدم الأسرة المالكة على أدمغة ولي العهد وأمه وأبيه.. ولقد قالت أكثر من مرة عليَّ و علَى أعدائي.. وانتقلت من فضيحة إلى فضيحة.. وحاولت إثارة شفقة الناس.. ولكن حين انتقلت إلى الزواج من مسلم يأتي لها بولد اسمه محمد وبنت اسمها فاطمة، ويكون الولد المسلم أخًا لملك بريطانيا راعى الكنيسة.. كان لابد من حل.. وجاء الحل بالقضاء على الأميرة وعريسها.. وبذلك انتهى مسلسل الرعب للأسرة المالكة البريطانية "

إني أميل إلى هذا التحليل.

ولكن هذا التحليل يطرح سؤالاً: ألم يكن من الممكن توجيه تحذير للأميرة.. بدلاً من قتلها؟

واقع الأمر أن الأميرة ليست من النوع الذي يمكن أن يقبل هذا التحذير.. بل إن عنادها يمكن أن يدفعها إلى ما هو غير متوقع.. وقد قالت قبل أن تموت: "سوف أناضل ضد هذه العائلة حتى النهاية " وقد أسرعوا بهذه النهاية حتى لا تناضل الأميرة ضدهم طويلاً.

وواقع الأمر أيضًا أن الأميرة قد تلقت هذا التحذير، على الأقل علنًا، والذي يراجع ملف الصحافة البريطانية قبل الحادث، وفيما بعد كشف، بداية العلاقة بين عماد وديانا، يتأكد من هذا.. ويدرك حجم التعامل العنصري الذي قوبلت به القصة.. ليس فقط من الصحف الشعبية التي تخاطب الغرائز وإنما أيضًا من الصحف الرصينة ومن هذه الجرائد التي عرفت بقربها من توجهات القصر الملكي.. وهو ما يعني أن التحذير قد وصل فعلاً.. ولكن الأميرة لم تستجب.. فكان القرار .. القاتل.

ولقد بدأت الصحف البريطانية في التعبير عن مؤشرات الحملة القادمة، بعد العلاقة، من اليوم الأول.. إذ

دخلت كلها سباقًا محمومًا حول مجموعة من الصور المهزوزة التي التقطها المصور الصحفي الإيطالي ماريو برنيا من خلال عدسة تليسكوبية، فوصل التنافس إلى حد بلوغ الصور سعرًا غير متوقع.. ثلاثة ملايين دولار بالتمام والكمال.. دفعت منها الصحف البريطانية وحدها مليون جنيه استرليني.. أي ما يفوق ثلثي سعر الصور.. وقد علقت جريدة التايمز على هذا حين قالت: " إن المزايدة على الصور بلغت حدًا مسعورًا حينما اتضح أن الرجل الذي تحتضنه الأميرة في صورة، وتدفن رأسها في صدره في أخرى، وتلف ساقيها العاريتين حوله في ثالثه.. عربي.. مصري الأب.. سعودي الأم.."

ويقول الدكتور صبري حافظ الناقد الأدبي المعروف في تحليله لما قامت به الصحف البريطانية في هذه الأيام: "لقد أتاحت هذه القصة للصحف الفرصة كي تنفس عن التعالي العنصري على أبناء البلدان التي سبق أن احتلتها بريطانيا.. ولا يوازي هذا التعالي العنصري الدفين على الأجانب إلا التمايز الطبقى الحاد في المجتمع البريطاني الذي لا يستطيع أن يغفر لمحمد الفايد أصله الطبقي المتواضع

بالرغم من أن ثروته الحالية تفوق ثـــورة الملكـــة إليزابيـــث ذاتها.."

ومضى يقول: " إن مغامرة ديانا وعماد الفايد كانـــت تنطوي على توليفة مثيرة، تدخل فيها ترسبات التاريخ القديم بين الثقافتين العربية والأوربية، والتي تعود لأكثر من تسعة قرون، منذ الحروب الصليبية وحتى الآن، وتستثير وقائعهـــا كل الأساطير الاستشراقية عن شـــهوانية الشـــرق وحســـيته وأساطير الجنس والفحولة الشرقية، والمرأة البيضـــاء التـــي ينتهك بياضها الناصع كالجليد الرجل الشرقي الأسمر.. حتى أن التايمز علقت على الصورة التي تحتضن فيها ديانا عماد بقولها: "إنها تحتضن كتلة من الرجولة العربية"

وفي البداية قالت الصحف الجادة معلقة على الأجازة التي قضتها ديانا مع ولديها ويليام وهاري في يخـــت أســـرة الفايد على شاطئ الريفيرا الفرنسي بأنها "أجازة غير مسئولة" ، "غير حيكمة" .. ومثيرة للجدل والأقاويل.. خاصـــة لأنهـــا اصطحبت الصغيرين معها. والمثير للسخط أكثر أن الأميـــر ويليام- الملك المرتقب أحب عماد، وقال أنه أول معـــارف أمي الذي يعرف شخصيًا كل نجومي المفضلين.

لكن الصنداي تليجراف مضت في اتجاه آخر، بدا وكأنه يدس السُم في العسل، حين هونت من أمر عماد الفايد، وأوحت أن الأميرة لم تجد أمامها غيره.. "هذه العلاقة ليست إلا سحابة صيف، تمت بسبب الصيف، وفراغ لندن من الرفقة المناسبة لأمثال الأميرة التي وجدت نفسها وحيدة، ولا يتوقع منها أحد أن تجلس طوال اليوم في قصر كينجرتون تشاهد أشرطة الفيديو.. ومن هنا فقد اقتنصت أسرة الفايد الفرصة وقدمت لها الدعوة.. ومجرد مغامرة عاطفية في الصيف ليست جريمة.. فكل امرأة إنجليزية تفعل هذا بالطبع شريطة ألا يتجاوز الأمر هذه الحدود "

إن الصحيفة إذن وجهت التحذير: " شريطة ألا يتجاوز الأمر هذه الحدود ومعنى الرسالة واضح، خاصة أن المقال نفسه مضى بعد هذا التحذير قائلاً: " إن الرجل الرئيسي في حياة ديانا يجب أن يكون الأمير ويليام.. وليس من حقها أن تضره، أو ترتبط بأناس لهم نشيد وطني غير مجموعة من نغمات الانتقام المتنافرة ".

والمعنى واضح، فعماد الفايد ليس له نشيد وطني .. أي بلا هوية.. منتهى التجاهل لحضارة عريقة ينتمي لها

الشاب الذي كانت تهاجمه الصحافة كل يوم في هذه الأثناء.. هو وأباه.

واستمرت حملة الهجوم على عماد وعلاقته بالأميرة.. وقالت صحيفة "سكوتسمان": "ما الذي يعجب ديانا في آل الفايد، رغم اللغط المثار على محمد الفايد والذي تمرغ في أوحاله في الفترة الأخيرة، ورغم أنه لم يزل يحاول أن يصبح مقبولاً في بريطانيا ".

وتفضح كاتبة إنجليزية كل أفكار العنصرية وهي تعلق قائلة: "إن ديانا سرعان ما سوف تكتشف أنها استبدلت سجن حياة العائلة الملكية بسجن أشبع هو السجن العربي" وفي نفس السياق تسخر صحيفة "الصانداي تايمز" من كل هذا وتقول: "هل سترتدي ديانا الحجاب قريبًا؟ " وتسأل صحيفة سكوتسمان: "ألا تستطيع ديانا أن تجد رجلاً إنجليزيًا محترمًا؟.. إن السر وراء هذا هو إخفاقها في تقدير كل القيم والممارسات التي تتميز بها الأرستقراطية الإنجليزية، وفشلها في احتضان معاييرها الثقافية، وهذا ما يجعلها تتدنى دائمًا في اختيار رجَّاله على هذا الحضيض ".

وحتى هذه اللحظة كان عماد في رأي الصحف البريطانية إذن هو رجل من الحضيض.. بلا هوية .. غير مقبول.. أجنبي.. أسمر.. سوف يضع ديانا في سجن.. غير محترم..

هذه هي الخلاصة، وكما يقول صبري حافظ فإن كل هذه الأوصاف لم تطلق أبدًا على عشاق ديانا السابقين.. " لقد أدت علاقتها مع ديل كالرنج من قبل إلى تدمير زيجته وطلاقه، وقد دفعت علاقتها مع إنجليزي آخر هو جيمس جيلبي إلى انتحاره، وفي مرة أخرى نشر مدرب الخيول جيمس هوايت كتابًا يحكي عن تأوهاتها معه في الفراش، وعرفت أيضًا رجلاً متزوجًا آخر هو أوليفر هور.. كل هذه الأسئلة التي طرحتها الصحافة البريطانية لم تطرح من قبل في كل تلك الحالات ".

وربما تكون الكاتبة العاطفية الشهيرة باربرا كارتلاند زوجة جد ديانا قد عبرت عن كل هذا حين كتبت تقول: "إن ثراء أسرة الفايد وكرمها الزائد، زودا ديانا بالأمن والرعاية اللذين افتقدتهما لدى أسرة وندسور الملكية.. ولكن اعتراضي الوحيد على هذه العلاقة هو أن عماد أجنبي ".

ثم أخذت الحملة منحىً آخر..

أخذت اتجاهًا هدفه تشويه صورة عماد نفسه.. والتأكيد على أنه رجل سيء.. تاريخه بالفضائح.. ينفق النقود ببذخ.. له مغامرات عاطفية عديدة ومتنوعة..

ولقد بلغت شدة الرغبة الصحفية في خلق هذه الصورة حد أن جريدة "صن" دفعت ٢٠٠ ألف جنيه استرليني بالاشتراك مع صحيفة "تيوز أوف ذا ورلد " لعارضة أزياء أمريكية اسمها كيلي فيشر كان عماد قد أقام معها علاقة، مقابل أن تدلي بتفاصيل هذه العلاقة للصحفيين..

ومضت كيلي فيشر تقدم للصحفي ما تريده: "إنه ليس عاشقًا بارعًا "

"إنه لا يعرف كيف يُمتع المرأة " " إنه ليس فارسًا في مضمار العشاق ".

" كنا ننوي الزواج لكنه هجرني من أجل ديانا ".

"علاقتنا لم تكن قائمة على الجنس"."كان يمطرني بالهدايا والمجوهرات"

وبجانب هذه الكلمات نشرت الصحف صورًا للعارضة الأمريكية وهي بجانب أمها تجلس تنتحب في

مؤتمر صحفي.. وفيما بعد قالت أنها شعرت بالنـــدم علـــى الطريقة التي تمت بها إدارة الأمر.

لكن الصحف لم تقف عند هذا الحد، وجاءت بماضي عماد الفايد مع فتيات أخريات، مـــنهن الممثلـــة الأمريكيـــة تيربي ليند التي قالت: "لقد أنهى العلاقة بيننا بمسدس".

أما مربط الفرس في كل هذه الحملة، وهـــو محمـــد الفايد فكان له نصيب لا بأس به.. إذ لم تتوقف الصحف عن أن تضع له دورًا دائمًا في كل هذا.. وكانت هي التي تفســـر دومًا الموقف بمنطق المؤامرة.. وتؤكد على أن كل هذا مـــن تخطيط الأب، الذي يريد أن يجد له مكانًا يضغط من خلالـــه للدخول في قلب المجتمع البريطاني الذي لفظه حتـــى الآن. وفي هذا السياق قالت صحيفة " التايمز": "لابد أن الفايد الأب يبتسم الآن ابتسامة واسعة من الأذن للأذن لأن ابنه اســـتطاع الإيقاع بأم ملك المستقبل"

أضافت التايمز:"هل يأمل محمد الفايد أن يكون تتويج ويليام ملكًا، له بُعد سكندري نتيجة لوجود إخوة الملك غيـــر الأشقاء من ذوي العيون السود محمـــد وكليوبـــاترا.. أبنـــاء

دودوي وديانا؟ وهل سيكون الجد العجوز – الخاطبة– هناك بنفسه يفرك يديه جذلاً وانتصارًا"

على خلاف ذلك فإن صحيفة الجارديان كانت الاستثناء من كل هذا، حين بررت العلاقة بين عماد و ديانا قائلة: "إن العلاقة بين الفايد وإيرك سبنسر والد الأميرة الراحل كانت وثيقة جدًا، وقد أوصى سبنسر قبل موته صديقه الفايد برعاية أسرته.. وهو الأمر الذي دفع محمد الفايد لأن يعين زوجته ضمن مجلس إدارة هارودز "

غير أن مثل هذا الكلام كان نقطة في بحر العنصرية وحملات تحذير ديانا مما تفعل. هنا نعود مرة أخرى إلى التايمز التي قالت: "سوف تكون نتيجة هذا الزواج إسباغ مكانة إجتماعية على أسرة محمد الفايد فورًا وسوف يصبح على أفراد المؤسسة التعامل معه باعتباره من الدخلاء عليها، ناهيك عن أنه من غير المقبولين منها.. وهذه المكانة قد تتيح له فرصة الانتقام ممن أساءوا معاملته من قبل"

وبالإجمال، وفي نهاية هذا الجانب من القصة فإنني أستعين هنا بتحليل كتبه الدكتور إدوارد سعيد أستاذ الأدب الإنجليزي قبل الحادث، وهو يرصد ما تكتبه الصحافة

البريطانية حول هذه العلاقة.. "الغريب أن هـذا يـأتي مـن مجتمع يفاخر بقيمه المتحضرة، ويحتقر غير الأوربيين لما يراه لديهم من فجاجة وافتقار إلى الرفي " إن جريمة الفايد الأب هنا هي أنه أقدر على ممارسة لعبة السلطة والنفوذ مما يستوجب لشخص أن يقال عنه في بريطانيا أنـه " جنتلمان شرقي وقور" وهو تعبير مليء بالسخرية.. وجريمة الابن أنه مغامر عاطفي مصري.. أي من تلك الفئة التي تثير لدى البريطانيين العاديين مزيجًا من مشاعر التهديد والانجذاب.. فمن المحرَّم على شخص كهذا لمس بشرة ديانا البيضاء الناعمة ". " ولقد تحول كل هذا الهزر الاجتماعي إلى العنصرية، وأحد أنواع التلمظ الجنسي الذي يصور الأمر على أنه علاقة بين شيخ شرقي شبق وعذراء بريطانية منتهكة "

لقد كانت الصحف إذن تدق الأجراس في أذن ديانا والفايد؟

كانت تعلن التحذير، وكانت توحي بأن المجتمع الذي قبل حصول الفايد الأب على برج إيفل البريطاني..

محلات هارودز.. لن يقبل أبدًا أن يأخذ أيضًا أحد أهم رموز المجتمع.. الأميرة ديانا.

وتحولت التحذيرات إلى حملة هيستيرية.. صراخ فاق حد التغطية الصحفية العادية أو حتى المتلاحقة.. وكان معنى هذه الحملة أنها تتضمن رسائل واضحة للاثنين: توقَّفا.. على عماد وديانا أن يتراجَعا.. هناك منطقة خطرة لا يجوز الاقتراب منها أبدًا.. إن ما سوف يتم.. أي الزواج.. لا يمكن السماح بحدوثه أبدًا.

لقد كانت علاقة محكومًا عليها بالموت. إنه الحكم الواضح الذي تضمنه ذلك الجناس اللفظي الذي قدمت به جريدة "صن" القصة في البداية: "دودي يستحق الموت من أجله "

وقد مات عماد. ووجهت الدولة أقوى لطماتها إلى محمد الفايد.. وبنفس الطريقة التي تم بها شحن الناس وتمهيد الأرض، والرأي العام للحدث القادم، كانت أيضًا الطريقة التي قدمت لتفسير حادث الموت. فالصحافة هي التي هاجمت.. والصحافة هي التي رفضت.. والصحافة هي التي قتلت..

إنني هنا لن أتعرض لكل هذه الملابسات التي اكتنفت هذا الحادث.. والذي أرى أنه كان مدبرًا إلى حد كبير. لن أتعرض لدور مصوري الصحف الشعبية، أو كلاب الصيد التي تطارد الفريسة من المشاهير في كل لحظة وحين.. لن أناقش نقطة السائق المخمور، والذي شككت أسرة الفايد في نتائج تحليل دمائه.. ولن أتعرض لقصة السيارة المرسيدس التي دافعت عنها الشركة المنتجة، وقالت أنه ليس لها دور في الحادث.. ذلك أنه حتى كتابة هذه السطور لم يكن التحقيق في الحادث قد انتهى.

غير أني بعد أن قدمت كل هذه التفاصيل التي تؤكد أن المجتمع البريطاني لم يكن ليقبل أن تمضي هذه العلاقة إلى نهايتها.. أتساءل: أين كان محمد الفايد؟

إن رجلاً بكل هذا التاريخ.. بكل هذه التجارب.. بكل هذا الرصيد من المعارك.. بكل هذه الخبرة في أعماق المجتمع البريطاني.. بكل هذه العلاقة الوثيقة مع القصر الملكي.. رجلاً بهذه المواصفات لابد أنه كانت لديه توقعات عن طبيعة نوع رد الفعل الذي يمكن أن تسببه هذه العلاقة.

فهل ضحَّى محمد الفايد بابنه؟

هل بخل عليه بالنصيحة؟!

هل قرر أن يخوض معه المغامرة حتى النهاية؟

هل استدعى من داخله صفة المقامر الذي يريد أن يكسب بأي صورة؟

هل أراد فعلاً أن تكون هذه العلاقة واحدة من أوراق اللعب؟

أم أن ذكاءه تخلَّى عنه في هذه المرة؟

أو ربما كانت عاطفة عماد وديانا أقوى من أي اعتراض؟

إنها أسئلة هامة وضرورية في نهاية هذا الفصل الذي ينتهي به الكتاب.. خاصة أن عماد يمثل لأبيه – مثل أي أب– رصيدًا هامًا وضروريًا في الحياة... أهم من أوراق الجنسية البريطانية.. بل وأهم من هارودز نفسه..

ولعلنا نستبعد السؤالين الأخيرين في بحثنا عن إجابة لعلامات الاستفهام العديدة في هذه القصة.. خاصة أن الأب أعلن أنه " يبارك هذه العلاقة "

فهل حول الفايد الأب ابنه إلى واحدة مـــن جـــولات معاركه العديدة؟.. أم أننا شديدي القسوة إذا استســـلمنا لهـــذا التحليل؟

٨

بعد الفصل الأخير

- **إلى أي وطن ينتمي محمد الفايد؟**

هل يمكن أن تتكرر حالة محمد الفايد؟
هل يمكن أن نرى شخصًا آخر من مصـــر بنفس الحجم والنفوذ والثراء والقوة والشهرة والموقع والضجيج والجدل و... كل صفات أفعل التفضيل الأخرى؟
والإجابة.. هي: ربما

هل يمكن أن تتكرر حالة محمد الفايد؟

ولكن لماذا نسأل هذا السؤال.. لماذا لا نعيد صياغته بشكل آخر.. هو: هل نحن في حاجة إلى نموذج محمد الفايد؟

هل مصر تريد هذا النوع من رجال الأعمال الأثرياء؟

والإجابة هنا لن تكون تقريرية. وإنما ستكون استفهامًا طويلاً، استفهام يسأل عن علاقة الفايد بمصر. يسأل عن وطن محمد الفايد. هل وطنه هو ذلك البلد الذي لم يزره منذ أكثر من ١٥ عامًا؟ هل وطنه هو على طريقة جحا.. فنلندا التي تزوج إحدى نسائها في عام ١٩٧٨ وأنجب منها أربعة أطفال. أم أن وطنه هو السعودية التي تزوج من إحدى بناتها عام١٩٥٤ حين اقترن بسميرة خاشقجي أخت عدنان خاشقجي. أم أن وطن هذا الرجل هو بريطانيا التي يسعى حثيثًا للحصول على جنسيتها منذ سنوات، ولم يحصل عليها بعد.. أم وطنه هو المكان الذي توجد به أمواله.. وبالتالي فإن بلده هي ثروته.. ونشيده القومي هو رنين النقود. وعلمه الذي يرتفع على السُّرَى هو الجنيه الإسترليني.

والإجابة عن هذا الاستفهام الطويل هي التي سوف تقودنا للإجابة على السؤال السابق على الاستفهام..

وهو: هل نحن في حاجة إلى نموذج محمد الفايد؟

وسوف يكون الرد هو النفي.

لماذا؟

لأن مصر لم تعرف من محمد الفايد وإخوته سوى الاسم. صحيح أنه وأشقاء ملأوا الدنيا ضجيجًا حين تبرعوا لمصر بمجموعة من كراسي المعوقين وأجهزة غسيل الكُلى وبطاطين تدفئة ضحايا السيول.. لكن الوطن.. الأم.. لم يعرف من ثراء الفايد شيئًا آخر. لقد كان بخيلاً تمامًا على بلده الذي أنجبه رغم أنه من حين لآخر يتحدث عبر لسان المتحدث باسمه عن " إنه يعتز جدًا بجنسيته وأصوله المصرية" ولم يُقم مشروعًا واحدًا له قيمة هنا. ولم ينشئ شركة. ولم يوظف عاملاً. ومنذ هاجر من مصر، تاركًا خلفه شركة سياحة صغيرة يعمل بها بضعة أفراد، وحتى صار هو الرجل الذي يوظف ستة آلاف شخص من بريطانيا، لم نر منه أي شيء.

بل إنه حين مات ابنه عماد فضَّل أن يدفنه في مقابر المسلمين في جنوب لندن، وبرر هذا بقوله: " إنني أريده قريبًا مني". على الرغم من أن أخواته في مصر – السيدات – كن يحلمن بدفن الابن الضائع في الإسكندرية.

ووفقًا للتقاليد المصرية والمفاهيم الدينية التي تربَّى عليها المصريون فإن من المقبول لكل شخص أن يجري في كل مكان. أن يغترب. أن يعمل خارج بلده. أن يربح. أو يخسر. أن يكبر.. أو لا يحقق شيئًا.. لكنه في النهاية يجب أن يعود إلى بلده.. خاصة إذا مات.. حيث لا يرغب أي مصري في أن تبقى جثته غريبة عن بلده.

ولكن هل يعتبر عماد وهو مدفون في لندن غريبًا عن بلده؟

واقع الأمر.. هو ..لا.. لأن عماد تربَّى هناك.. وعاش هناك.. وأكل وشرب هناك.. بل إنه حتى حين اختلف مع أبيه قضى وقتًا بعيدًا عنه في الولايات المتحدة وليس في الإسكندرية.. وتذكر فقط الجميع اسمه حين صارت جنسيته هي السبب في عدم إتمام علاقته مع الأميرة ديانا.. وأن دينه هو الذي عطل زواجه وأدَّى إلى قتله..و تذكر الجميع مجددًا

أنه مصري، حين أرسل الرئيس حسني مبارك برقية عــزاء إلى محمد الفايد.. ثم زارته في لندن قرينة الــرئيس الســيدة سوزان مبارك وواسته في مصابه.

وليس من حقي أن أشكك في وطنية محمد الفايد.

وليس في يدي أن أسحب منه انتماءه الأصلي.

ولكني أتحدث هنا عن هذا الموضوع لأنني أظن أنه الوطن ليس شهادة ميلاد.. وليس بيتًا فخيمًا فــي العجمــي.. نزوة كل بضع سنوات.. وليس قصرًا في فيكتوريا نفكر في بيعه.. الوطن انتماء.. والانتماء له مظاهر.. والمظاهر ليس فقط التحدث باللغة العربية..وإنما هي أبعد من ذلك بكثيــر.. هي إحســاس.. ومشــاركة.. واقتــراب دائــم.. وأفكــار.. ومفاهيم.. وتقاليد.. وتضحية.. وتربية.. وذاكرة لا تُنســى.. ولا تنكر الأصول والجذور.. وتعبير عن كل هذه الأحاسيس بطرق مختلفة.

هل يعني هذا أننا لا نوافق على نموذج محمد الفايد؟

الإجابة سأُبقيها معلقة.. معلقة في رقبة الاستنتاج.

إنني مع المغامرة. مع البحث عن فرصة جديدة.. مع أن تُثرى بلا حدود.. مع أن تترك بلدك – مؤقتًــا – دون أن

تتساه إلى الأبد.. مع أن تصبح رجلَ أعمال كبيرًا بـــدون أن تتجاوز القواعد الأخلاقية.. مع المعارك التي تســتخدم فيهــا أسلحة نظيفة.. مع العناد.. ومع ألا ينسى أحد ثأره.

ولكن هل هذه الشروط يمكن أن تتوافر فـــي رجـــل أعمال يفرزه الزمن الحالي؟

بالطبع لا. وربما من المستحيل. فالأسواق لا مكـــان فيها للأسماك الصغيرة.. والحيتان تأكل كل مـــن يقـــاوم ولا يرضخ لشروط النمو. والمعارك لا تستخدم فيها أبدًا الأسلحة النظيفة – وقد استخدمت كل أنواع الأسلحة القذرة ضد محمد الفايد– والنمو له شروط معقدة والثراء لا يكون سهلاً علـــى الإطلاق إذا التزم الراغب فيه بالأخلاق.

في هذا السياق فإنني أرصد أن كثيرًا مـــن نمـــاذج رأسمالية الخارج لم تكن تلتزم بهذه المعايير الرومانسية التي نتحدث عنها الآن. وإذا نحينا جانبًا هذه المعايير الرومانســية فإنه لا يجوز بالتـــالي الحـــديث عـــن الـــوطن والأصـــول والجذور.. وعن الجنسية الأم.. لأن أي رجل أعمال لو وجد فرصة في مكان آخر سوف يلتقطها فورًا.

والأمثلة عديدة. وهذا ليس حديثًا معنيًا به الفايد وحده.

ولكني في المقابل أرى أن النموذجًا الأكثر قبولاً في هذا السياق.. في إطار الحديث عن النماذج المصرية في الخارج لن يكون في كل الأحوال هو رجل الأعمال.. الثري.. الذي يبحث في كل يوم عن ربح جديد.. النموذج الذي أؤيده وأرحب به هو – للأسف – قاصر على أشخاص من خارج مجال الأعمال.. أغلبهم من العلماء.. وأبرزهم أحمد زويل في الولايات المتحدة.. ومجدي يعقوب في بريطانيا.

والأول عالم جليل، له إنجازه العلمي المميز، والذي يقال إنه يستحق عنه جائزة نوبل في الفيزياء.. هو مهاجر مصري قديم لم ينس أبدًا وطنه.. ويزور مصر على الأقل مرة كل سنة. ولا يبخل بعون أو نصيحة. بل لا يتأخر عن حضور مؤتمر علمي بها.

وهو في كل الأحوال حين صار معروفًا في الخارج، صار موجودًا أكثر من ذي قبل في الداخل.

نفس المواصفات تنطبق على مجدي يعقـــوب. هـــذا الطبيب المرموق الذي يحمل لقب "سير" في بريطانيا. وعلمه لا يقف عند حدود المواطنين الأجانب. ويأتي إلى مصر فـــي أحيان كثيرة.. بل يجري جراحات مجانية بها.

إنه الفرق بين العالم ورجل الأعمال.

بين نموذج نحبه ونرضاه.. ونموذج كنا نتصـــور أن لديه أفضل مما يقدمه.

عبد الله كمال

أكتوبر ١٩٩٧